

صبري يوسف





تجلِّيات في رحاب الذَّات

تجلِّيات

في رحاب الذَّات

رواية

صبرى يوسف

الطبعة الأولى

2019م- 1440هـ

الإهداء

إلى روح دادي زومي الّتي قدّمتني بوداعة للحياة

إلى كلَّ المربِّين والمربِّيات الَّذين علّموني في كلِّ مراحل تعليمي

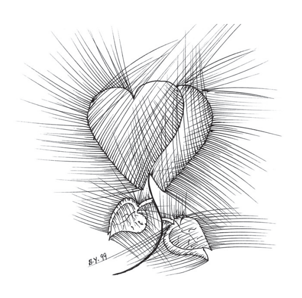
إلى فلّاحي وفلّاحات ديريك وسهول القمح الفسيحة

إلى الأصدقاء والصَّديقات في كلِّ مكان!

استهلال

شعرت بسعادة غامرة، كلّما كتبتُ فصلاً جديداً من أحداث فصول روايتي "تجلِّيات في رحاب الذّات"، وغصتُ عميقاً في متاهـات انبعـاثِ الـسَّرد! كنـتُ أظـنُّ أنَّ الـشِّعرَ هـو بوّابـة العبور نحو مرافئ الجنّة، وإذ بي أكتشف بعد أن جمحتُ شاهقاً في منعرجات الـسَّرد الـرّوائي، أنَّ الشّعرَ ما هو أكثر من شـطحات فرحيّـة وأنينيّـة في عـرين الإبـداع، لكنّـي غـير قـادر عـلى ترجمة مفاصل حياتنا الّتي نحنُّ إلى تجسيدها عبر تجلّيات بـوح الـشّعر، لأنَّ الـشِّعر ينبعـث من تدفُّقات الخيال، وطافح بالصّور الخلّاقة، بينما السَّرد الرِّوائي هو الحياة بعينهـا، لأنّ الـسَّرد الرِّوائي قادر على تجسيد شهقاتنا وانكساراتنا ونجاحنا في الحيـاة بكـلِّ تفاصـيلها ومنمنماتهـا، وهو أشبه ما يكون برحلةِ عبورٍ في بساتين الجنّة من حيث المتعـة خـلال تـدفُّقات الانبعـاث! لكن مع كلِّ هذا لا أجد فكاكاً من إغواء الشِّعر فهو يظهر جليّاً في مسارات سردي وأنـا غـارق في أحداثه حتّى النِّخاع، فيظهـر الـشِّعر بكـلِّ شـطحاته متألِّقـاً بـين الحـين والآخـر فـوق بـوحِ اشتعالات الحنين! وهكذا بدا لي النَّص الرِّوائي بمثابة نصّ شعري جديد عـبر أحداثـه المتـشعّبة وخيوطه المتداخلة مع بهجة الخيال وأحـداث مـن وهـج الحيـاة، تتعـانقُ مـع بعـضها بعـضاً تجلِّيات إبداعيّة عبر رحيق الشّعر والقص والسّرد والحـوار وكأنّنـا إزاء استنـشاق ألـق الحيـاة بكلِّ تفاصيلها المترامية فوق ذاكرة منسابة بأشهى تجلّيات الخيال!

صبري يوسف



1

ضيفٌ جديد يضافُ إلى حزانى هذا العالم

رحّبت بي الدَّاية (دادي زومِي) وأنا أزعق زعيقاً طويلاً، شقَّ سكونَ اللَّيل، بهذا الزَّعيق استقبلتُ نورَ الصَّباح، ارتسم على وجنةِ أمّي بهجة الخصوبة، خصوبة الحياة! .. قصّت (دادي زومي) بحذرٍ حبل السّرّة ثمَّ مسحَتْ قطرات الدَّم الَّتي تناثرَت على جبيني النَّديِّ. ضيفٌ جديد يُضافُ إلى قائمة حُزانى هذا العالم.

هل كان زعيقي صرخةَ احتجاجٍ في وجهِ الظَّالمين في هذا الكون، أم أنّه نداءُ تضامنٍ مع بسمةِ الفقراءِ؟!

فرحَتْ أمِّي بزعيقي القادمِ من دكنةِ اللَّيلِ، واعتبرته فأل خير. كان والدي يحملُ فوقَ كاهِلِه تعبَ السِّنين، متوجّهاً إلى حقله المسترخي بين أحضانِ البراري، كي يزرعَ آخر ما تبقّى من الحنطة، بغلتان كبيرتان تتقدّمان نحوَ الحقلِ، يفرش عدّة الفلاحة على الأرض، تطنُّ أذنه طنيناً خارجاً عن المألوف، فيعرفُ من ذبذباتِ الطَّنينِ أنّ ثمّة أخبار مفرحة تعانقُ حبَّاتِ القمحِ الَّتي يزرعها في صبيحةِ ذلكَ اليوم المنعش برذاذاتِ الخير.

مطرٌ ناعمٌ تناثرَ فوقَ وجنةِ الحقولِ، رفعَ رأسه للسماء متمتماً لنفسه، اهطلي علينا بركاتكِ يا سماء. ربط بغلتَيه بالمحراثِ ثمّ بدأ يبذر حبَّات الحنطة. توافدَتِ العصافير و"التِّيتيّات"* تلتقط حبيبات القمح بشغفٍ، فقال للطيور كلوا يا طيوري السَّارحة في العراءِ، كُلوا كي تتباركَ نعمة الطَّنين الهاطلة عليّ هذا الصَّباح.

ركضَتْ أختي كريمة نحو الحقلِ، لمحها من بعيد، فقال، اللـه يجعله خير يا ربّ! استقبلها بابتسامةٍ، فبشّرته بزعيقي الملوّن بنكهة الخطميّة، بقدوم طفلٍ من لون الحنطة، يشبه تماماً أريجَ النّعناعِ. رقص والدي حول بغلتَيه، رافعاً كوفيته وعقاله، ملوِّحاً بهما لبهاء الطَّبيعة، للطيورِ، لنداوةِ النَّسيمِ.

ذُهِلَتِ البغلتانِ فدارَتا معه ترفعان أقدامهما، فرقصَتْ أختي مع والدي بعفويَّتها. هزَّتِ البغلتان كتفيهما ثمَّ بدأتا تسيران رويداً رويداً وتشقّان طريقهما على إيقاعِ الفرحِ على نعمةِ العطاءِ، عطاءِ الأرضِ، عطاءِ النّور، عطاءِ السَّماءِ، عطاءِ النّعمةِ. هل كنتُ نعمةً فوقَ سهولِ القمحِ ولا أدري؟!

بدأتْ كريمة تبذر الحنطة ووالدي يحرثُ الأرضَ بفرحٍ عميق، متخيّلاً شكل الثّغر الّذي خرجَ الزَّعيقُ منه. دمدمَ يغنّي بصوتٍ خافتٍ كي لا يقلقَ العصافير، فكانت تلتقطُ حبّاتها بمرحٍ، تبتعدُ قليلاً عن سكّة المحراثِ، ثمَّ تعودُ بمرحٍ كبير، تمعّنَ بها والدي قائلاً:

سبحان الله! حتَّى هذه الكائنات الصَّغيرة تكافح كي تسدَّ رمقها ورمقَ الفراخِ. طارَتْ بعضُ العصافيرِ نحو براعمها، ثمَّ حطَّتْ على أكتافِ العشِّ وبدأتْ تطعمُ فراخها ما حملته لها. لملمَ النَّسيمُ بين جناحيه ندىً عذباً كشهوةِ الحياةِ. تغلغل فرحٌ منعشٌ في قلبِ الوالدِ على مدى رحابةِ الحقولِ.

كانَتِ الضَّفادع المسترخية قرب النَّهرِ، ترسل نقيقَها المتواصل كأنّه أنشودةَ البحرِ المنبعثة من حنايا اللَّيلِ. سَرَحَ والدي، عاشق البراري بخياله، مبتسماً لبرعمه الجَّديد، وهو متلهِّفٌ للقائه، كي يزرع بسمته فوق براءةِ عينيه.

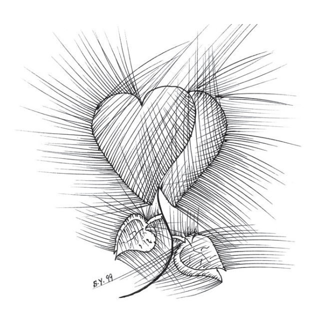
ماذا سيسمِّيني هذا المزدهي بحبَّاتِ القمحِ؟!

فكّر باسمٍ يليقُ بعذاباتِ الأيَّام القادمات، اسمٌ يحميني من غدرِ الزَّمان، فوقعَ اختياره على صبري! كي يصبر وليده الجديد على الملمّاتِ. نعم كي أصبرَ على المآسي الَّتي ستحيق بي على مدى الأيَّامِ والشّهورِ والسّنين!

تعبَتِ البغلتان من الحراثة. قبَّلَتِ الشَّمسُ خدودَ الأرضِ، فارشةً دفئها على ربوعِ الكونِ، جاءَتْ كريمة حاملةً زوَّادةً، فيها قليلٌ من الزَّيتون والجبنِ وخبزِ التَّنُّور، وقليلٌ من الخضار و"الكِشْكِ" المخَلَّلِ المُعدِّ من الحنطيّة والحرشف والحِمحِم والبونكة وحشائش برّيّة أخرى.

استرخى على مقربةٍ من جرّةِ الماءِ، تاركاً بغلتَيه ترعيان العشب البرّي. فتحَتْ ابنته زوّادتها، وفرشَتْ زادها تحتَ قبّةِ السَّماءِ، وبدآ يأكلان بلذَّةٍ لُقَيماتِ الجبنِ وخبزِ التَّنور.

قامت كريمة تجلب طاسةً مِنَ الماءِ، خلطته باللَّبنِ فأصبحَ رائقاً ورشَّتْ عليـهِ قلـيلاً مـن الملـحِ، شربَ الوالدُ من العيرانِ بشهيّة عميقة، وهو يتخيّلُ بفرحٍ مولـوده الجديـد، مقمّطـاً بالـسَّنابلِ والأعشابِ البرّيّة.



2

حملني والدي بهدوء وباسني على خدِّي

بدأتِ الشَّمسُ نحو المغيبِ، فكَّ الوالد النِّير و"البرمولكات"* من حول رقبتَي البغلتَين، هزَّت البغلتان رأسيهما بطريقةٍ سريعة وكأنَّهما تحرَّرتا من سجنٍ، كما هزَّتا جسميهما كأنّهما تنفضان التّعب المرصرص على كاهليهما.

وضع والدي "هافساراً"* في رأس كلِّ بغلة، لملم حاجاته ووضعها في خُرْجِهِ ثمَّ وضع الخُرْجَ على ظهر بغلته البيضاء، ركبَتْ أختي على البغلة البيضاء وركب والدي على البغلة البنّيّة، كانت هذه الأخيرة شمُّوسة وترفس فيما هي تسير من دون أيِّ سبب، ويكفي أن يتحرّك طائر من هنا أو هناك حتَّى تجفل وترفس وتركض من دون أيِّ استعداد لراكبها بهذا السُّلوك المفاجئ، لهذا كان والدي يفضِّل أنْ يركبَ هو عليها لأنّه اِعتادَ على سلوكها المفاجئ، ويترك البغلة البيضاء الهادئة لأختي، حيث كان يعتبرها بغلة هادئة ومباركة ومطيعة على عكس هذه البغلة البنّيّة الشَّمُّوسة وغير المطيعة في أغلب الأحيان!

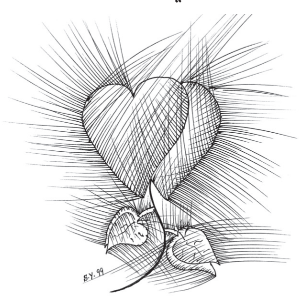
دخل والدي بفرحٍ كبير ساحة الدَّار ونزل عن ظهر بغلته، متوجّهاً نحوي، كي يرى نعمةَ النِّعمِ، أجملَ الهدايا. كنتُ مقمَّطاً بالفرح، كلّ أفراد الأسرة ينتظرون قدوم أبي المكتنز بحبَّاتِ الحنطة، حملني بهدوء وباسني على خدّي، فتناثر عبقُ الطَّبيعة على خدّي، فرحٌ غمر الجميع، وزّعَتْ أمّي حبَّات السّكاكر على أولاد الجيران الَّذين جاؤوا يهنّئوننا.

جهَّزت أختي "دركوشة*"، مهد أخي الَّذي كان يكبرني، وصلّح أخي الكبير بعض مفاصلها المتراخية، وزيّنتها أختي بالخرز الأزرق وبعض أنواعِ الودْعِ، كي لا تضربني عين الحسّاد، هكذا جرَت في حينها العادات. كنتُ ألعب في الزِّينة المعلّقة في أعلى "الدَّركوشة"، تُرضِّعني أمّي كلّما أجوع أو أبكي.

بعد شهورٍ بدأتُ أحبو قعوداً، هكذا قيل لي عندما كبرتُ، لم أحْبُ على ركبتَيَّ ويديَّ، كنتُ أحبو قاعداً، أسحب نفسي بعقبَي قدميَّ نحو الأمام، غريبة هذه الحالة في الحبْوِ، لأنَّ أغلب الأطفال بما فيهم إخوتي حبوا زحفاً وعلى يديهم وركبهم، إلَّا أنا سرت أحبو قاعداً بطريقة طريفة، وكأنّي أكسر إحدى قواعد الحياة، أو عادات الطُّفولة أو ربّما هو نوع من مجابهة الحياة، وتحضيراً للنهوضِ، وكم كنّا نقضي أوقاتاً ممتعة عندما كبرت قليلاً، أسمع إلى إخوتي وأخواتي كيف بدأتُ أسير وأقع وأزحف قعوداً بحركاتٍ طريفة، تبهج القلب.

عندما شببتُ عن الطَّوقِ شاهدتُ بعضَ المقعدين يزحفون وهم قاعدون، حزّ في نفسي أن أراهم هكذا، تذكَّرْتُ نفسي وأنا طفل أحبو مثلهم، ولكنّهم كانوا أكبر منّي وهم شباب ومع هذا يسيرون زحفاً وهم قاعدون ومقعدون، وقد صمَّموا على مؤخَّراتهم قطع بلاستيكيّة سوداء سميكة، كي تقيهم وتساعدهم أثناء زحفهم، كم من الأسى والأنين حتَّى تبرعمَ وجه الشّفقِ!

بعد شهور نبَتَ لي سنّان أماميَّان، ففرح الأهل بنموٍّ أسناني اللَّبنيّة وأعدّوا حفلة صغيرة يطلقون عليها "الزّيدِهْ"*، يسلقون الحمّص ويشترون الحمّص ملبّس والسَّكاكر ويرشُّونه على رأسي ويلتقطه الأولاد الصِّغار الَّذين يحضرون "الزِّيدِه" ويأكلون الحمّص والسَّكاكر بلذَّة غامرة، ثمَّ يتوافد الأطفال الصِّغار تباعاً ويهنِّئون والدتي وأهلي قائلين زيدتكم مبارك، ثمَّ يفتحون أياديهم الصَّغيرة كي يأخذوا حصَّتهم من السَّكاكر والملبّس، وهكذا نكبر وتبقى هذه الذّكريات بهجةَ فرحٍ، تتدلدل مثلَ السّنابل في مرافئ الذَّاكرة!



3

ذهول أمِّي من هدوئي وانسجامي مع كائنات برّيّة جميلة

بعدَ بضعةِ شهور قمَّطتني أمّي وربطتني وحملتني إلى سهول القمح، لملمَتْ باقات العشب والأزاهير البرّيّة ثمَّ عملته سريراً لي. استقبلتني الطَّبيعة بهوائها النَّقيِّ، حطّتْ فراشة جميلة على خدّي وأخرى على أنفي وهي تسمعُ إلى شهيقي. نطّ جرادٌ صغير على صدري وسار فرس الأمير، جرادٌ أخضر صغير على مقربة منّي، توقّف عندما رأى فراشتَين جميلتَين على وجهي، فغار منهما وحاول أن يصعد نحو يدي اليسرى الَّتي خرجت حتّى نهاية السَّاعد من القماط، سار على أصابعي بهدوءٍ وحذرٍ شديد.

جاءت أمّي لتطمئنَّ عليَّ، فوجدتني أبتسم للجراد والفراشات والحشرات الصَّغيرة. ذُهِلَتْ أمِّي من هدوئي وانسجامي مع هذه الكائنات البرّيّة الجَّميلة. نظرتُ إلى الفراشتَينِ وروعةِ اخضرارِ فرس الأمير، جرادٌ صغير يسيرُ بكلِّ شموخٍ وبهاء، نطَّ جرادان صغيران بعيداً، حالما وصلَتْ أمِّي.

نظرَتْ أمِّي إليَّ وهي تبتسمُ، متسائلةً فيما بين نفسها، هل من المعقول أن تكون هذه المخلوقات الصَّغيرة قد فرحت لقدوم طفلي إلى هذه البراري، فجاءت تحتفي بقدومِهِ وتلعب معه؟!

كانت تنظر إليَّ وإلى الكائنات المتناثرة حولي وفوق صدري ووجهي بذهول، متمتمةً سبحان اللـه! .... فرَّتْ إحدى الفراشات، ثمَّ حطَّتْ على خدِّ أقحوانة، انحنت أمّي وحملتني، ففرّتِ الفراشةُ وحطَّتْ على رأس أمّي، ونطَّ الجَّرادُ نحو أعشابِ "السَّيِّل والكاروش" المتعانقة مع أوراق "الحِمْحِمِ والقيفاراتِ ورأسِ الريِّسِ" وسيقان "البيشّكات" الرَّفيعة والمدبّبة مثل مسلّة غليظة نحو الأعلى.

أنمو كما تنمو سنابل القمح، عبرتُ عامي الخامس منتظراً حلول آذار وبدايات نيسان، لبسَتِ الطَّبيعة أبهى حللها، كأنَّها ستحضر حفل زفاف الأرض للسماء، وكم من

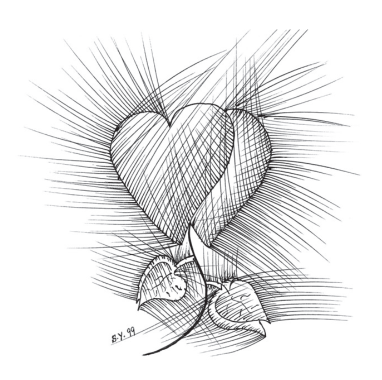
المرّات زُفَّتِ الطَّبيعة لأجملِ الكائنات، للبحار، لزخَّات المطر، لحنين الصَّحارى، لضياء الشَّمسِ في صباحات نيسان الباكرة!

مروج على امتدادِ البصر، تنتظر أطفالاً في عمرِ الزُّهورِ، نعبر في متاهاتها الجَّميلة. كنَّا نلتقي عند الجِّهة الشِّماليّة من المدينة، ثمَّ نوجّه أنظارنا نحو الأراضي الزِّراعيّة، حيث النَّفل والأعشاب والأقحوان والأزاهير الجَّميلة الملوَّنة، تغطِّي معابر المدينة. نعبر المروج المتاخمة لديريك، قال أحد الأطفال، أنَّ مَن يعثر على نَفَلٍ بأربعة أوراقٍ سيفوز بجائزة، فما وجد الأطفال أنفسهم إلَّا وهم يبحثون عبر اخضرار النَّفل على نفلٍ بأربعة أوراقٍ، عبثاً لم يتمكّن أحدٌ منَّا العثور على واحدة منها، فكلُّ النَّفل كان بثلاثِ أوراقٍ. كان بعض الأطفال يحاولون أن يقطعوا ورقة مشابهة لثلاث أوراقٍ ويضعونها بين الأوراق الثّلاثة، ولكن سرعان ما كنّا نكتشف الورقة الإضافيّة، قائلين له يا حيّال، تريد أن تخدعنا وتفوز بالجَّائزة، وحتَّى الآن لا أعلم مَن هي الجَّهة أو الهيئة الَّتي كانت ستمنح هؤلاء الصِّغار الجَّائزة، لو عثر أحدهم على هذا الشَّرط المستحيل!

لملم كلُّ واحد منَّا باقة صغيرة من "البيرقلَّاجك" والخبّازة وكنّا نطلق عليها ونحن صغار "الطُّولكه"، نمسحها وننظّفها من الأتربة العالقة بها، ثمَّ نأكلها ونحن نزداد عبوراً في البراري الفسيحة.

أجمل ما في تلكَ الأيَّام، أنَّنا كنّا نملأ صدورنا بالهواء النَّقي في كنف الطَّبيعة، وكأنَّها أمّنا الَّتي أنجبتنا للحياة. طبيعة خلَّابة، جميلة، نقيّة، معبّقة بأبهى الأزاهير والطُّيور والكائنات والحشرات الصَّغيرة ودبيب الأرضِ والنَّباتات المزدانة بالجمال والقداسة أيضاً، حيث أنّنا أطلقنا على نباتٍ له أشواك صغيرة ووبر ناعم ينمو على أغصانه الرَّفيعة الطَّويلة، اسم "دم المسيح"، وحالما كنّا نصل إلى هذا النَّوع من النَّبات، نقطف غصناً صغيراً منه، فينضح منه قطرات حمراء وكأنّها دم، فكنَّا ننقش صلباناً على أيدينا بهذه الأغصان، ندمغ بها ظهور وراحات أيدينا، ثمَّ نيمِّم وجوهنا نحو سهول القمح الخضراء، الممتدّة على مدى البصر. نلملم في طريقنا ما نصادفه من "الحِمْحِم والقيفارات"، ونقشِّرها ونأكلها بلذِّةٍ كبيرة، كانت فاكهتنا وخضرتنا اللَّذيذة والمفضّلة. نسمع سقسقات العصافير والطُّيور

الجَّميلة، كم كنتُ أحبُّ مشاهدة "الكابلاك والدِّيكي بور" والزّرازير والبلابل الصَّغيرة، .. فجـأةً يصيحُ أحدنا يا إلهي "شوقلّة شايك"، ويصيح آخر "شـوقلّة عـصفور"، نلملـم باقـات الـشُّوقلّة بكلِّ أنواعها، ونتبارى فيما بيننا، مَن يلمُّ أكثر، تكبر باقاتنا، ونبدأ بأكلِ حبيباتها اللَّذيذة.



4

عبوري في رحاب البراري

بدأتِ الطَّبيعة تلبس حلُلَها البهيّة، طبيعة مفتوحة على مساحات الحنين، متعةٌ ما بعدها متعة تمنحنا الطَّبيعة بهوائها النَّقيِّ، كم كنّا نفرح ونحن نشاهد الطُّيور بكلِّ أنواعها في بدايات الرَّبيع، ونسمع إلى تغريد البلابل وسقسقات العصافير، وكم من مرّة كان إخوتنا الكبار يعملون "شاقولات" أثناء هجرة الطُّيور كي يصطادونها، فيصنعون "الشَّاقولة" بطريقة يدويّة، تأتي الطُّيور وتحطُّ عليها وتأكل من فتات الخبز المثبّت في أعلى الشَّاقولة وفيما يأكل الطَّير قطعة الخبز الصَّغيرة، يقع في الشَّاقولة وهي فخٌّ للطيور، فنمسكه حيَّاً ونلعب به، وأحياناً كنّا ننتف قسماً من ريش أجنحته كي لا يستطيع أن يطير، وكنّا نصنع للطيور أقفاصاً ونضعها في الأقفاص ونقدِّم لها الحبوب ونتمتَّع بمشاهدتها وهي تأكل حبيبات الحنطة، فرحٌ يسطع في سماء الرُّوح ونحن في أعماق سهول القمح، نلمُّ "الحَرْشَف والحِمْحِم والشُّولكة وعين البقرة وبطاطة الأرض والبيشّكات". أيّامٌ لا تنسى، ستبقى محفورة في أرخبيلات الذَّاكرة، وساطعة في مرافىء الرُّوح إلى أمدٍ بعيد!

مراراً قلتُ لأصدقائي عندما شَبَبْتُ عن الطَّوق، إنَّنا لو استمرّينا نأكل الحبوبيَّات والنَّباتات الطَّبيعيّة اللَّذيذة، كنَّا سنصبح نباتيِّين مع مرور الزّمن. كنَّا نضحك وفي أعماقنا تفور لواعج الحنين إلى تلك الأيَّام، الَّتي كانت بحق من أجمل أيَّام العمر الّتي عشناها!

نعود بعد رحلة بديعة في رحاب الطَّبيعة، إلى المروج المتاخمة لبيوتنا ونلعب فوق أعشابها النَّديّة، لعبة "البرّي" و"الحين كاليو" وكنَّا نطلق على اللُّعبة الأخيرة "الدّار بولكة"، وقد كان أخي نعيم صاحب نَفَسٍ طويل في "الحين كاليو" وسريعاً أثناء الجري، ما كنت متفوِّقا في الألعاب عن أقراني، كنتُ أحبُّ "البرّي" كثيراً حيث كنّا نلعبها بنيناً وبناتٍ، وكان فيها منافسات لذيذة تبهج القلب، ثمَّ نعود أدراجنا إلى البيت، تستقبلنا أمّهاتنا وهي تقدِّم لنا أكلاتٍ شهيّة كالبرغل والمدفونيّة والأبرخ والسميديّة والكتل، وأحياناً الشّمبورك، أكلات

ذات نكهة لذيذة، نأكل بمتعة وشهيّة مفتوحة، وبعد أن نرتاح قليلاً نيمِّمُ شطر الحارة وهناك نجتمع مع أطفال الحيِّ، ونلعب من جديد بـ "الكلل والمزعار"، وكنت أحبُّ لعبة المزعار، وكان أقوانا في لعبة المزاعير كريم زومي وجورج ابن خالي ووديع ابراهيم بهنان وعيسى لحدو عبدي وكذلك أخي نعيم كان بارعاً في المزاعير، أمَّا في لعبة الكلل فكان شكري شلو ابن عمي من أقوى اللَّاعبين خاصَّة في لعبة "الجورة والعِنَن"، ألعاب جميلة تتراءى أمامي الآن، وكأنَّها حدثت البارحة أو في وقتٍ قريب، تتراقص أمامي ذكريات وألعاب الطُّفولة بكلِّ تفاصيلها ومباهجها، أفراحها وأتراحها، ستبقى هذه الألعاب تداعب ذاكرتنا، بما فيها لعبة "الباقوش والبوكة والكيلافرّي والطّفش والصَّلابة والقتيلة والمختبوية والتّوش"، أحياناً كنَّا نأتي ونشاهد أخواتنا يلعبن الخرز في كومة الرَّماد، حيث توزّع إحدى اللّاعبات كومة الرَّماد إلى كومات صغيرة، متساوية في الحجم، بحسب عدد اللّاعبات، وتفتح كل لاعبة من اللّاعبات كومتها وتفتِّش عن عدد الخزر الَّتي في كومتها، وتربح بعدد الحبَّات الَّتي في كومتها، في حال لو كانت خرزاتها الَّتي في كومتها أكثر من الَّتي توزّع كومات الرَّماد!

كم كانت البنات تفرح عندما كنَّ يربحن الخرز من صديقاتهنَّ، وكم كنّا نتحمَّس لربح أخواتنا أو من نحبّهنَّ من اللّاعبات!

نعود أدراجنا إلى بيوتنا، بعد يومٍ حافلٍ بالألعاب، وقبل النَّوم كنَّا نلعب أحياناً في المنزل خلال السّهرة، لعبة "الخوصة وبيت لبيت"، ولعبة الخوصة كانت عبارة عن خاتم نوزّعه مع فريق معيّن، والفريق الآخر يحزر مع مَن هو الخاتم، ونفرح عندما يحزر أحدنا الخاتم مع مَن هو، وينتقل الخاتم مع الفريق الَّذي حزر مع مَن كان الخاتم، ولعبة بيت لبيت كانت حزازير عن عدد أفراد الأسرة الَّتي في الحي، فيطرح أحد الفريقين سؤالاً قائلاً ثلاث أولاد وبنتين وأب وأم، والفريق الآخر يحزر مَن هي العائلة؟ وهكذا نستعرض العائلات وأفرادهم ونحزر السُّؤال، وعندما نحزر الجواب نفرح، ويطغى على الجَّو بهجة وفرح من القلب، وأتذكَّر جيّداً كيف كان سؤالي يدور حول عدد أفراد أسرتنا بالذَّات، فكانوا يجيبون عن السُّؤال مستعرضين أُسر أغلب الحي وينسون أسرتنا، فأضحك وأقول

جوابكم غلط، والجَّواب الصَّحيح هو: أسرتنا! يضحكون ويقولون يا شيطان توّهتنا كلَّ هذا الوقت وأنت تحزِّرنا بأسرتنا!

أضحك وأقول، أليست أسرتنا أيضاً إحدى الأسر في الحيِّ!

ستبقى هذه الألعاب صوراً أزليّة منعشة لبَلْسَمَةِ واحات الخيال بكلِّ فضاءاته ومتاهاته المفتوحة على حنين مروجِ اللَّون والحرف على مرِّ السَّنين!

كم كنتُ أفرحُ عندما كانت تشتري لي أمّي فستاناً، أو كلاشاً أثناء الصَّيف، حيث أنّني كنتُ أرتدي فستاناً وأنا طفل على شكل كلابيّة، وكان لفستاني قشاط على مكان تموضع خاصرتي من الخلف، وعندما كنّا نلعب، كان أصدقائي يمسكونني من القشاط، وأنا أركض بسرعة، فينقطع القشاط ويتمزّق فستاني، لأنَّ القشاط كان مصنوعاً من الفستان نفسه، كانت أمِّي تخيِّط ليس فستاني الممزّق، وقشاطاً من بقايا القماش الزَّائد من الفستان، لكنّي في أحد الأيام قلت لأمي، ماما أرجوك لا تخيِّطي لي في الفساتين القادمة قشاطاً بهذه الطَّريقة، فقالت لي كيف تريدني أن أخيّطه لك يا أبني، وضحكت على سؤالي، وعندما شرحت لها فكرتي، اِبتسمت وقالت فعلاً معك حق يا ابني كي لا يستطيع أحداً أن يقطعه عندما تلعبون، حيث كانت فكرتي حول موضوع التَّخلّص من قَطْعِ قشاط فستاني، تتركَّز بأنْ يكونَ القشاط مُخيَّطاً مع الفستان ويكون مجرَّد منظر لقشاط، وكانت فكرة ناجحة سرعان ما طبّقها كلّ أصدقائي لأنّهم هم أيضاً كانت تتعرَّض قشاطاتهم للقطع وفساتينهم للتمزيق، وفعلاً بعد أن خيّطته بالطَّريقة الَّتي شرحتها لها، لم ينقطع القشاط نهائيَّاً، لأنّه أصبح بعيداً عن مرمى الهدف، وغير قابل للإمساك!

5

قَطْفُ العنب وبيعه في سوق المدينة

كنّا ننهض باكراً، أنا ووالدي ووالدتي وأختي كريمة، أركب على حمارتنا حيصة، مـوجّهين أنظارنا نحو كرمنا في صباحات الصَّيف المنعشة!

كان نسيم الصَّباح النَّدي، يملأ قلوبنا بـالهواء النَّقـيِّ، نعـبر أزقَّـة المدينـة والنّـاس نيـام، نصادف في طريقنا أحياناً حرّاس المدينة، فتّاح الحارس، أو عبدو فرمان، نصل الكرم قبل بـزوغ الشَّمس، نلملم عناقيد العنب، يا إلهي كم كانت عناقيد عنب المـسبّق البـاردة لذيـذة! كنـت آكل أشهى العناقيد، وكان ثلث الكرم تقريباً من عنب المسبّق، الَّذي ينـضج قبـل بقيّـة أنـواع العنب، ولهذا على ما يبدو أطلقوا عليه المسبّق، لونه أحمر على خمري غـامق، لذيـذ للغايـة، وكان لدينا أنواع أخرى من العنب كـ"البحـدو، وبـيظ الحـمام، والبلبـزِّيكي، والـشّيمي، والـدّار كفنار، والمزرونة".

كما كنتُ أحبُّ الأرنوب، نهايات أغصان الدّاليات، أقشّرها وآكلها، وغالباً ما كنت آكلها قبل أن تنضج العنب، كانت أمّي، تلملم أوراق العنب، وتصفِّفها بطريقة جميلة، خلال وقـت قصير، نملأ أربع سلال من العنب مع صرّة كبيرة مـن ورق العنـب، نـضع الـسِّلال في الــ "جـار جيركه"، المصنوعة من الخشب والمربوطة عبر حبال فوق ظهر الحمارة، وكانت تتّـسع لـسلَّتين من كلِّ طرف، ونضع صرّة ورق العنب فوق ظهر الحمارة بين السِّلال.

نادراً ما كان يسمح لي والدي أنْ أركبَ على الحمارة في طريـق العـودة، وهـي محمّلـة بأربعة سلال من العنب مع صرّة الورق، قائلاً:

"خطيّة، الدّابة حيوانة اللـه، تتعب هي أيضاً، فأربعة سلال من العنب مع صرّة الورق وأنتَ لو ركبت عليها، سيصبح حملها ثقيلاً، مؤكِّداً على أنّني أستطيع المشي أكثر منهم، فلـماذا لا أتركها تسير مرتاحة في حملها"*!

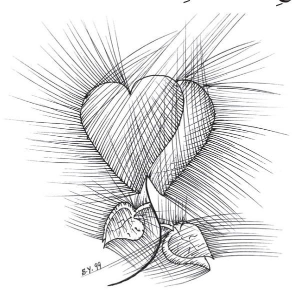
كنت أقتنع بجوابه، وأسير معهم والشَّمس على وشك البزوغ، كم كنتُ أتمتَّع وأنا أنظـر إلى الشَّمس وهي تشرق من خلف التِّلال البعيدة، نصل إلى سوق المدينة، نفرش سلال العنب، واحدة مخصَّصة للبيت لأكلنا، والسِّلال الباقية للبيع مع أوراق العنب!

كان يزورنا بين الحين والآخر أحمو أبو سلو وبعض الجيران لتناول العنب، فكـان أحمـو جارنا، أحد المستأجرين في بيتنا وانتقل من بيتنا وأصبح له بيتاً خاصَّاً، لكنّه كـان يزورنـا أثنـاء الصَّيف لتناول العنب، كأنّه أحد أفراد أسرتنا ويتناول العنب الشَّهي ثمَّ تقدِّمُ لـه أمِّـي صحناً من العنب وتضعه في كيس صغير وتقول له هذا الـصَّحن هـو لفجـرو أم سـلو والأولاد فكـان يقول، "دستي ته خشْ دْيا سليمان"! يسلموا أيديك أم سليمان!

كما كان يزورنا في كل موسم بعض المطاربة "الغجـر"، كـأحمو علانـة وسـعدو مطـرب، يتسوَّلون الحنطة والعنب وبعض المونة، أتذكّر جيِّداً ارتسام البشاشة والفـرح عـلى وجـوههم أثناء زياراتهم لنا، تنامَت علاقة طيّبة وإنسانيّة بين والدي وبين هؤلاء الغجر، يرفعون أيـديهم للسماء، ويدعون لوالدي ولنا بالتَّوفيق في كلِّ خطوة نخطوها.

ترتسم حارتنا ديريك العتيقة بكـلِّ أزقّتهـا وشـعبها أمـامي، كـما ترتـسم ديريـك بكـلِّ أحيائها أمامي ثمَّ تغفو بين هفهفات الحلم، كلَّما أستسلم لنومٍ عميق!

شغفٌ عميق ربطني بأمِّي وأبي وكروم العنب، ظللتُ قرابة سنتين، موسـمين متتـاليين، أرافق أمّي وهي تبيع العنب، بينما والدي وأختي يأخذان الحمارة إلى البيت، وأنا وأمِّي نظـلُّ نبيع العنب حتَّى ننتهي من بيعِ كلّ السِّلالِ!



6

من بيع سلال العنب إلى حضور الأفلام الهنديّة

عندما أصبحت في العاشرة والحادية عشرة من عمري، بدأت أفرش عنبنـا وأشرف عـلى بيعه بنفسي، وأعفيت أمّي، من البقاء معي، فاستغربت، وقالت يا ابنـي أنـتَ مـاتزال صـغيراً، كيف ستبيع وحدك هذه السِّلال من العنب؟ فقلت لها، خلِّيك معي، كم يوم فقـط كمـشرفة على كيفية بيعي، وحالما تقتنعين من قدراتي في إدارة بيع العنب، عندها اتركيني أقوم بالمهمّة وحدي، وفعلاً ظلّت معي حوالي أسبوع وأنا أبيع العنب، أناقش سعرها مع الزّبائن وأزن لهـم العنب في ميزان صنعته أمّي من القشِّ، من سيقان الحنطة عـلى شـكل طبـق صـغير ومـرتبط بثلاثة قنّبات بعود، وفي وسط العود من الأعلى قنّب قـوي لرفـع الميـزان. نـضع كيلـو في كفّـة ونزن العنب في الكفّة الأخرى، كانت الأوزان نصف كيلو، كيلو، وكيلوَين مـن الحجـر الـصّوَّان، نستخدمها في الوزن، ثمَّ اقترحت لاحقاً على أمّي، شراء نصف كيلـو وكيلـو وكيلـوَين حديـد كي نستخدم هذه الأوزان، أفضل من اِستخدام حجر الصّوَّان، فاقتنعتْ بفكرتي وأخـذتْ اقتراحـي محمل الجَّد وخصَّصنا مبلغاً من البيع لشراء هذه الأوزان، كي يثـق المـشتري مـن دقَّـة الـوزن، وهكذا كنتُ أبيع العنب بمهارة وأستلم قيمتها من الزّبـائن، وأعيـد لهـم البـاقي، وأضـع ثمـن العنب في جيبي بطريقةٍ دقيقة، حيث كان لي جيباً فيه سحَّاباً، أضع فيه نقودي كي لا تقع من جيبي أو ينتشلها منِّي أحدهم وأنا منهمك مع الزّبائن!

حالما وجدَتْ أمّي، أنّني قادر على بيع العنب لوحدي، باستني وقالت صدّق عـم تبيـع أحسن منّي يا ابني، وهكذا أصبحت منتجاً وأنا في العاشرة والحادية عشرة من عمري!

عقل اقتصادي متفتّح لطفل، حيث أنّني خصّصت دفتراً لبيع المحصول أوَّل بـأوّل، منـذ أوَّل يـوم بعـتُ فيـه العنـب لوحـدي، واتّفقـت مـع أمّـي أن أخـصِّص لي ربـع لـيرة يوميّـاً

لقاء جهدي كي أذهب إلى سينما اشبيننا هتّي، أبو جاك، مع شكري ابن عمّي، فكنّا نحضر كل فيلم جديد، وباقي الغلّة كنتُ أسلّمها لأمّي، وأسجّل ما استلمَتْهُ أمّي منّي، وما استلمْتُهُ أنا، ونادراً ما كنتُ أصرف مخصّصاتي، إلَّا في السِّينما، أو شراء مزعار، أو كلل، أو تخصيصها لشراء دفاتر وأقلام وأدوات مدرسيّة، أو لشراء لباس وكلاش جديد، وهكذا ترعرعتُ منذ باكورة عمري ضمن ظروفٍ فيها مسؤوليّة وحسابات دقيقة من جانبي، فعرفت قيمة الفرنك الَّذي أربحه بعرق جبيني، وانطلاقاً من واقع الحال، جنحتُ نحو التَّقشّف والاقتصاد منذ أن كنتُ طفلاً، لا أصرف فرنكاً من فرنكاتي إلَّا لما هو ضروري، وضروري جدّاً.

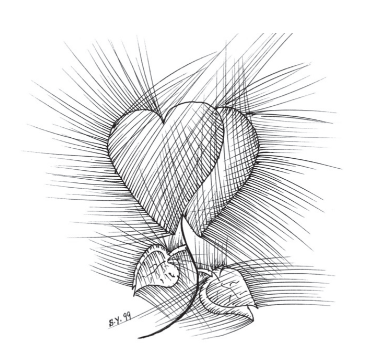
حالما أصبح رصيدي خمس ليرات سوريّة، خطر على بالي أن أبدأ بمشروع خاص وهو شراء تشكيلة من المصّاصات والبسكويت والرَّاحة والعلكة والنّعناع والكاكاو، وغيرها من أنواع السّكاكر، وبيعها بعد الغداء أمام بيتنا في الشَّارع، فوافق والدي ووالدتي، وبدأت أشتري علبة من كلِّ نوع، وعندما كنتُ أبيع قليلاً من تشكيلتي، كنت أشتري ما ينقصني من السَّكاكر الّتي يحبّها الأطفال، إلى أن أصبح عندي تقريباً عشرة أنواع من أفخر أنواع التّشكيلة الخاصّة بالأطفال، أربح أسبوعياً قرابة خمس ليرات سوريّة في حينها، ولكن والحق يقال كان شكري ابن عمّي، أكثر تفوّقاً منّي بكثير في بيع التّشكيلة، لأنّه كان ذكيّاً جدّاً في تطوير تشكيلته، فقد اشترى لعبة السَّهم، وكان الأطفال والمراهقين يلعبون معه بالسّهم ويشترون منه بما يربحون، وفي أغلب الأحيان كان يربحهم بلعبة السّهم، لأنّه كان يتدرّب في رمي السّهم ويحقّق نتائج رائعة، واللُّعبة تتضمَّن ثلاثة رميات، ونجمع الرَّميات الثَّلاثة، والّذي يحقِّق رقماً أكبر يربح!

تطفح من عيني دموع الحنين، الحنين إلى طفولة من لون المطر، طفولة منسابة مثل مياه دجلة في أوج اهتياجها وعبورها في أخاديد الوديان الّتي إحتضنتها منذ أمدٍ بعيد، آه الذَّاكرة البعيدة بعيدة للغاية كأنَّها حلم من أحلام الرُّوح الشَّهيّة، كأنّها ذكريات لزمن آخر غير زمننا هذا، زمنٌ معفَّرٌ بالغدر، زمنٌ مهووس بالاحتيال والحروب والصِّراعات وجنون لا يخطر على بال.

"أتساءل، كم من السِّلال حملت حمارتنا حيصة على امتداد سنوات وسنوات، وكم مـن الخدمات الجَّانبيّة، وما كانت تتأفَّف أبداً، تكتفي بقليل من العشب والعلف، بينما الآن أجـد قادة العصر، بعـض قيـاديي القـرن الحـادي والعـشرين يهطلـون وابـل سـمومهم عـلى الـبلاد والعباد، ولا يقلقون على موت آلاف الرَّائعين والرَّائعات في هذا الكون الفـسيح، أنـا متأكِّـد أنَّ حمارتنا حيصة ذات الحافر المتطاول قـدَّمت خـدمات لنـا، للإنـسان أكـثر مـمّا يقدِّمـه هـؤلاء القادة، سخفاء آخر زمن!

ماذا تفيدني تقنياتهم وتكنولوجيَّاتهم وعلومهم وطائراتهم طالما يهطلون سمومهم على أطفال وكهول وشيوخ بلدان مشتعلة بالنّار، دون أن يرمش لهم جفن؟!

أنا أرى أنَّ حيصة، نعم حيصة أفضل منهم ومن كلّ مَـنْ يفكِّـر بهـذا الـشَّكل الوحـشي الأهوج، أراهم متعطِّشين للدم بشكلٍ مخيف، وكأنّهم من فصائل وحوشِ البراري!".



7

عبور عالم فكِّ الحرف

عندما التحقت في المدرسة الاِبتدائيّة، كنت في الخامسة والنّصف من عمري، فلم يقبلني مدير المدرسة، وقال لأمّي سنقبله في العام القادم، فرَحْتُ جدّاً لأنّي سألعبُ عاماً آخر.

التحقتُ بمدرسة ناظم الطَّبقجلي الاِبتدائيّة وأنا في السَّادسة وبضعة شهور من عمري، كانت المدرسة تقع في أقصى شرق المدينة، وبيتنا في أقصى الشّمال الغربي من المدينة!

ديريك العتيقة، مسقط رأسي، حوشٌ كبير، مسوَّر بأحجار بازلتيّة، بنى والدي بيتنا من الحجر والطِّين، وسقفه من الخشب وأعواد السّرو الغليظة، بيت فسيح، يتألّف من أربعة غرف كبيرة وإيوان وبْخيْري: مطبخ صغير. وأكواخ عديدة للبقرات والبغال و"حَضْرَةْ" كوخ كبير مخصّص للتبن!

لم يتابع إخوتي الَّذين يكبروني دراستهم، ولهذا لم أجد من يرعاني ويشرف على تعليم دروسي ووظائفي المنزليّة، أشرفت على نفسي بنفسي، وأخواتي الأكبر منّي لم يلتحقن بالمدرسة أصلاً، وهكذا بدأت رحلة العبور في عالم فكِّ الحروف أثناء اللّيل، بعيداً عن أيِّ إشراف أو تعليم أسروي.

كان والدي الَّذي لا يفكُّ الحرف، يستهويه أن يشرف عليَّ بطريقته الفلّاحيّة، حيث أنّه بعد عودته من الفلاحة، يستحمُّ ثمَّ نتناول العشاء، ويطلب منّي أن أعمل دروسي أمامه، كان ينظر إلى خطّي وأنا أكتب درس القراءة كوظيفة كتابيّة، قائلاً لي: أكتبْ خطّكَ "شدَّامْدَة"، أيوه "هيك شدَّامْدَة" أي بشكل مساوٍ وعلى أفقٍ واحد، لا تتركه فوق أو تحت الخطِّ الرّفيع الَّذي تكتب عليه، اكتبه بشكل جيِّد مثلما تخطُّ سكّتي خطوط الفدّان بشكلٍ مستقيم.

كنتُ أضحك وأقول له وما علاقة خطوط فدَّانك يا بابا بخطوط دروسي وكتابتي؟!

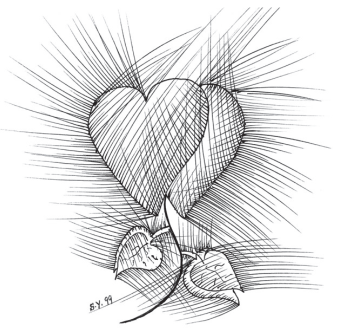
يضحك هو الآخر، متوعِّداً والده الّذي لم يضعه في المدارس، مع أنَّ جدّي في حينها كـان متوفِّياً، فقد توفَّاه الأجل في مقتبل العمر، فأصبح والدي يرعى أسرته وكأنّه ربّ الأسرة وهو في الرّابعة عشرة مـن عمـره تقريبـاً، ثـمَّ تـزوّج في مقتبـل العمـر، عنـدما كـان ينظـر إلى خطّـي، بدعاباته المعهودة كان يقول "خطّك ينقّط منه سمّ"، قاصـداً أنّـه جميـل ولا مثيـل لـه، هـذه كانت كل رعاية أسرتي بي، فقط جملة واحدة قصيرة من والدي: خـلّي خطّـك "شـدَّامْدَة"! كـم لهذه الكلمة وقعٌ على تفوّقي، على خطّي، حقيقة الأمر خطّي كان من أجمل خطوط التّلاميذ في مرحلتي، حتَّى أنَّ بعض المعلِّمين اتَّهموني مراراً أنَّ وظائفي الكتابيّة لا أكتبها أنا، بل إخـوتي الكبار، فكنتُ أدافع عن نفسي، مؤكّداً للأساتذة على أنَّ إخـوتي لم يتـابعوا دراسـاتهم، وخطِّـي هو أحلى من خطّهم وأنا في الصَّف الثَّـاني، وقـد كـان لنحافـة جـسمي، دافعـاً كبـيراً أن أكـون متفوِّقاً في مدرسـتي عـلى أقـراني وإخـوتي، لأنَّنـي كنـت أشـعر بـالأسى والخيبـة لـو فـشلتُ في المدرسة، كيف سأحمل الحجارة الكبيرة، والكربيج: اللّبن المجفّف، وأكيـاس الإسـمنت وتنكـات الرّمل والطّين، كيف سأعمل في مواسم الحصاد، أحصد بالمنجل طوال فترة الصّيف الحارق؟!

ما كنتُ أستطيع أنْ أتخيَّلَ نفسي عامل بلوك، أو عـاملاً عنـد معمارجـي، أو حاصـوديّاً، أحصد باقات الحنطة على مدى شهور الـصَّيف، لهـذا دافـع عميـق دفعنـي لأن أتخلّـص مـن العذاب والأعمال الشّاقة الَّتـي يقـوم بهـا العـمّال والفلّاحـون في ذلـك الوقـت، حراثـة الأرض بالفدّان، وحصاد المحصول بالمنجل، ثمّ دراسته بـالنَّورج، وأحببـتُ أن يكـونَ الحـرف مـنجلي، والحبر حبّات قمحي وطموحي!

عندما وزّعوا الجَّلاءات في الصَّف الأوَّل، نجحت بترتيـب جيِّـد، أمـسكتُ جـلائي أي شهادة الصَّف الأوَّل، ثـمَّ ركـضْتُ بهـا مـن المدرسـة متوجّهـاً نحـو البيـتِ، مـردِّداً طـوال الطّريق: ولا سنة ما رسبتُ ولا سنة ما رسـبتُ! مـع أنّنـي نجحـت مـن الـصَّف الأوَّل إلى الصَّف الثَّاني. سررْتُ جدّاً عندما قطعت العتبة الأولى بنجاح، واندهش المارَّة من فرحتـي، استقبلني أهلي بفـرح، باسـوني، وجـدتُ في وجـه أبي الفرحـة، وأمِّـي هلهلَـتْ زغرودتهـا الرَّائعة "كليليليليلي"، أكثر من مرّة، فجاء الجِّيران وهم يفرحون لفرحي ونجـاحي، قـرأتُ

الدَّهشة المرسومة على وجوه النِّساء والرِّجال الَّذين زارونا، وقدِّموا لنـا التَّهـاني، شربـوا الـشَّاي وهم يباركون والدي ووالدتي بنجاحي.

الآن، أدقِّق بمراحل طفولتي، أدهشني هذا السُّلوك الطُّفـولي الجميـل، سـلوك يتقـاطع مع روحانيّة شاعر، كأنّه روائي يكتب سرده منذ طفولتـه مـن خـلال سـلوكه الطُّفـولي، عـشتُ طفلاً حالماً، غارقـاً في الطُّمـوحِ، وظـلَّ هـذا الطُّمـوح الممتـدِّ عـلى أحـلامٍ مفتوحـة، جـزءاً مـن شخصيّتي وتطلُّعاتي حتّى الآن!



8

حصاد العدس والحنطة والشّعير

لأيَّام الحصادِ ذكرى طيّبة في حياتي، لكن فكرة الحصاد بالمنجل ساعاتٍ طوال في حرِّ الصَّيفِ، كانت ترعبني، وتجعلني أن أبذل قصارى جهدي في مراجعة دروسي، كي أخطو عالياً فوق منجلي الصَّغير، نحو منجلٍ طري يداعب الحرفِ، يناسب خيالي السَّارح في براري ديريك، يرسم سهول القمح الوارفة بألوانٍ مبهجة من نكهةِ الحياةِ.

كنتُ أساعدُ أسرتي في لملمةِ "الملّوات"، أكوام الحنطة المحصودة، وأنقلها إلى عند الكديس وهناك أخي أو أختي كانت تصمِّم الكديس بشكل دائري مقبّب من الأعلى، السَّنابل نحو الدَّاخل والسِّيقان نحو الخارج.

خلال الاِستراحات كانوا يسنّون مناجلهم الكبيرة بحجرِ صوَّان خاصة، ويضعون عليها قليلاً من الزَّيت الخاص كي تصبح المناجل حادّة، وأحياناً كنا نسنُّ المناجل بأحجار الشّحف البازلتيِّة الزَّرقاء الغامقة، كنت أراهم فيما هم يحصدون، ينقّون "القنجرّة والخرنوف والشّوك والبلّق العين ورأس الريّس والخطميّة" ويرمونها خارج باقات الحنطة، ويتركونها للرعي في الفريز: الحقل، وأمّا "السَّيِّل والكاروش والخُشِّيلة" وأعشاب أخرى كنّا نحصدها مع باقات الحنطة لأنّها كانت تتحوّل إلى تبن مناسب لعلف الحيوانات.

ما كنتُ أستطيع نهائياً أحصد بـ "القيناغات"، مثلما كان يحصد بقيَّة أفراد أسرتي، حيثُ كان إخوتي يرتدون القيناغات بأصابع اليد اليسرى كي تقي الأصابع من الشَّوك والقنجرِّة ومرفقات الأعشاب الشَّوكيّة، وبنفس الوقت كانت تساعدهم على حصاد كمِّيّة كبيرة في الباقة الواحدة.

خلال الاِستراحة، كنَّا نرتاح تحت ظل "الكولّكة"، وهي عبارة عن مظلّة قماشيّة مفتوحة من كلِّ الجَّوانب ومربّعة، تصنعها أمّي من الأقمشة وأكياس الخيش، مرتبطة بحبل من كلِّ زاوية من زوايا المربَّع، ونربط الحبل بوتد داخل الأرض، ثمَّ نضع أعواد بحدود

مترين تحت كلِّ زاوية من زوايا "الكولّكة" وعود في الوسط كي نرفعها بطريقة تناسب جهة الشَّمس، مساحتها تكفي ما بين سبعة إلى ثمانية أشخاص أو أكثر، ويتمُّ تصميم حجم الكولّكة بحسب عددنا، كم كان ظلّها طيّباً في قيظ الظَّهيرة الحارقة، وبعد الغذاء أحياناً كثيرة كنّا نأخذ قيلولة وننام ساعة أو أكثر تحت ظلّها!

نضع في ظلِّ الكديس جرّة كبيرة مملوءة بالماء، ونحوّل الجرّة بحسب حركة الشَّمس، وعندما كان يزورنا أحد الأصدقاء والشّخصيات الهامّة، أو يمرُّ على مقربة منّا، سرعان ما يرفع أحدنا باقة الحنطة الَّتي لمّها عالياً، قائلاً باقتك يا فلان! كنوع من التَّكريم والتّقدير لقدومه، فيقدِّم لنا هديّة ما، أو يحصد معنا قليلاً لقاء الاِحتفاء به ورفع باقته!

كانت مهمّتي منحصرة بمساعدة أمّي بلملمة الملّوات، باقات الحنطة، لكنّي غالباً ما كنتُ أترك هذه المهمّة لأمّي وحدها، وأركضُ خلف الفراشات والجَّراد والجّزجزوكات، وهذه الأخيرة عبارة عن حشرات صغيرة صفراء وخضراء، تجزجز بطريقة جذّابة للأطفال، ولهذا أطلقنا عليها جزجزوكه، لها جناحان شفيفان جميلان.

طفولة ملوَّنة بألوان الحياة غافية في رحاب الذَّاكرة بكلِّ أفراحها وأتراحها، "أحنُّ إلى أيَّامِ الحصاد. كنتُ أتوه بكلِّ شغفٍ بينَ متاهاتِ الحقول، ألملم النَّباتات الملوّنة بأبهى أنواع الزُّهورِ، تتراقصُ أمامي صوراً ومشاهدَ مسربلة بين طيّاتِ الغمام. عندما كنتُ طفلاً، كنتُ أعبرُ البراري الفسيحة، أركضُ خلفَ الفراشات والجَّراد الأخضر. أهربُ من لملمةِ باقات الحنطة. كانت أمّي تقول لأسرتي دعوه يفرحُ معَ عوالمِ الفراشات والعصافير.

أتذكّرُ جيداً كيف قادتني إحدى الفراشات إلى أعماقِ الحقل، وإذ بي أمام عشِّ عصفورٍ فيه فراخ صغيرة تفتح مناقيرها عطشاً.. تساءلتُ، هل هذه الفراخ عطشى مثلي، أم أنّها تتوقُ إلى أحضانِ الأمِّ .. ركضتُ نحو جرّةِ الماءِ ثمَّ عدْتُ حاملاً في يدي الصَّغيرة طاسةَ ماءٍ، فقالت أمّي لمن هذا الماء يا ابني؟ ركضتُ نحو الجهة المعاكسة لأهلي قائلاً، لفراخِ العصافير، ضحكَتْ أمّي ثمَّ قالت، ونحن ألَا نستحقُّ قليلاً من الماء يا ابني؟ سآتي حالاً يا أمّي، تهتُ عنِ العشِّ ولم أهتدِ إليهِ لأنّه كانَ في وسطَ الحقلِ، ثمَّ جلستُ وحيداً وسنابل القمح تحضن دمعي .. قَلِقَ الأهل عليّ عندما طال بهم الاِنتظار، وخافوا أن

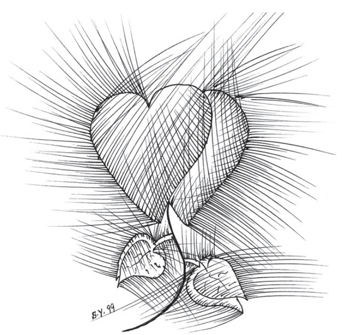
تكونَ قد لسعتني أفعى في قيظِ تلكَ الظّهيرة في رحاب الحقـلِ.. ثـمَّ اسـتنفروا يبحثـون عنّـي فوجدتني أختي، زغردَتْ وقالت هوذا صبري، ثمَّ حملتني وهي تمسح دمعـي، فبكيـتُ أكـثر، سألتني أمّي ماذا تريد يا ابني؟ قلتُ لها ضيّعتُ الطَّريق إلى عشِّ فراخِ العـصافيرِ! .. ضـحكوا، فجنَّ جنوني وطلبتُ منهم أن يمشّطوا الحقل بحثاً عـنِ العـشِّ. تلكـؤوا في بـادئِ الأمـرِ، لكنّـي بدأتُ أبكي بصوتٍ عالٍ، فما وجدوا بدّاً إلّا أن ينصاعوا إلى أمري، وبدؤوا يبحثون عـن العـشِّ، أمسكَتْ أختي يدي ونحنُ نمشي. بعد لحظات سمعتُ أمّـي وهـي تهلهـلُ (كليليليليليـلي!)، هوذا العشُّ يا صبري!

ركضتُ بفرحٍ، آهٍ .. ولكن أين طاستي؟ قلتُ لأختي اركضي، نسيتُ طاستي هنـاك عنـد دمعتي، ركضَتْ أختي مثل البرقِ، ثـمّ جـاءَت تحمـلُ رغبتـي، أمـسكتُ الطَّاسـة ثـمَّ وضـعتُ اصبعي في الماءِ وبدأتُ أنقِّطُ قطرات الماء في حلقِ الفراخِ وهـي تفـتحُ مناقيرهـا الغـضّة، نظـرَ والدي إليَّ بتمعُّنٍ، ثـمَّ همـسَ متمـتماً مـع أمّـي، كنـتُ غائـصاً في عـوالمِ الفـراخِ، أُغـدِقُ عـلى حلوقهم العطشى مطري، سمعتُ والدي يقـول لأمّـي هـذا الولـد (مـو عـادي)، فقالـت أمّـي (خلّي) يفرح مع فراخ العصافير، فقال لها (خلّي) يفـرح، لكنّـه شـديد الحـساسيّة إلى درجـةٍ لا يتصوّرها عقلي، وأخافُ عليه من الجنون، جنونُ الحبِّ والعشقِ، جنونُ التَّواصل مـع اخـضرارِ الكونِ! .. فَرَحْتُ عندما شبعَ الفراخُ ثمَّ أمسكتُ الفراخ بيـدي وبـدأتُ أداعـبُ زغبهـا النَّـديِّ، أتذكَّرُ أنّني قبَّلتها .. كنتُ أشعرُ وكأنّها تشكرني، كانت عيونها الـصَّغيرة تنظـرُ إلى عيـوني، هـل فهمَتْ أنّني لستُ أبيها ولا أمّها؟ هل عرفَتْ أنّنـي دمعـةٌ سـاخنة تخـرُّ عـلى فـضاءِ الـرُّوحِ؟.. شوقٌ جامح إلى هلالاتِ العشقِ، ومضةُ فرحٍ طريّة فوقَ جباهِ النَّسيمِ، طفولـةٌ مفروشـة فـوقَ أمواجِ البحرِ. تعالي يا طفولتي أريدُ أنْ أفترشَـكِ فـوقَ أجنحتـي لعلَّـكِ تفتحـي أمـامي أبـوابَ النَّعيمِ."(*).

(*) فراخُ العصافير: إحدى قصصي القصيرة الّتي جاءت بين قوسين، أدرجتها في سياق متون هذا الفصل لتناغمها مـع فضاءات السَّرد.

حنان عميق ومنعش، يجرفني إلى أيام الحصاد، والرُّكوب على "الجَّرجرِ"، كانت تنتابني متعة غامرة أثناء ركوبي على الجَّرجر، وهو النَّورج في لغة البيان الفصيح! أشمَّ رائحة السّنابل، أسمع صوت "دفرات الجَّرجر" المسنونة تكسّر أكوام الحنطة، شعورٌ طافحٌ بروعةِ العطاء، طفولة معبّقة بباقات الحنطة، بمذاقِ الصَّيف، تطفح عيناي بدموع الشَّوق، مراراً عبرنا حقول دوَّار الشَّمسِ، نلمُّ أشهى أنواعِ الجَّبس والبطّيخ الأصفر المعروف بحلاوة المذاقِ، والأخضر متميّز بنكهة حامضة لذيذة، والفنجكات والقتّي لها أنواعها بمذاقاتها الشَّهيّة، كنتُ أحبُّ رائحة الشّمّام الملوّن بالأصفر والأحمر!

نملأ خُرْجاً من هذه الخضار والجبس والبطِّيخ، نأكلها في عزّ الحرِّ، تخفِّف من تعبِ النّهار، كم كنتُ أحبُّ تناول الجبس أو البطِّيخ مع خبز التنّور والجُّبن، جبنُ أمّي من أشهى أجبانِ الحيِّ، تضع فيها حبّة السّوداء، حُبيبات البركة، وكم كانت ماهرة في إعداد "السّيركة" والجّبنة المثوّمة، وتضعها في سدودٍ كبيرة، وتعمل لنا مربّى القرع والعنبِ بطريقةٍ لذيذةٍ، وتعدُّ كمّيات كبيرة من "الشُّورتان" والبامياء والباذنجان .." وتجفِّفها وتموّنها للشتاءِ الطّويل.



9

نقل أكداس الحنطة بالتريلّات إلى البيادر

كنّا ننقل أكداس الحنطة والشّعير والعدس إلى البيـادر بـالتّريلّات، بعـد أن ننتهـي مـن الحصاد، كي ندرسها بالجَّرجر، نكوّم الحنطة كومة كبـيرة، وكـذلك العـدس والـشّعير، ثـمَّ نبـدأ بدراسة الحنطة أوَّلاً، نضع عـوداً طـويلاً في منتـصف الكومـة ونـضع حلقـة خـشبيّة في العـود ومربوطة بحبل طويل، كي نربط الحبل في النّير المتموضـع فـوق رأس البغلـة الَّتـي عـلى يمـين كومة الحنطة، كي تسير بشكل دائري فوق قوشة الحنطة، حيـث تجـرُّ بغلتـان الجرجـر فـوق طبقة من الحنطة بسنابلها وقـشِّها، كي ندرسـها بـالجرجر، وكلّـما يـتمُّ تكـسيره قلـيلاً نجمّعـه نحـو الجَّانـب الخـارجي مـن القوشـة، ونـضع باقـات جديـدة في مكـان القوشـة كي ندرسـها، وهكذا ندرس الكومة الكبيرة كمرحلة أولى، إلى أن يتشكَّل حول القوشة كـلّ الحنطـة المدروسـة، وتصبح كومة الحنطة الكبيرة خالية من وسط الدَّائرة من أيّة باقة حنطـة، فنـضع وتـداً حديـديَّاً "سكّه" في منتصف القوشة الدّائريّـة، ونـربط يـسار رأس البغلـة المـرتبط بإحـدى "البرمولكـات" بحبل طويل ومرتبط بالوتد الحديدي المثبّت في مركز القَوْشِة، كي تدور البغلتان بطريقـة دقيقـة فوق قوشة الحنطة الّتي ندرسها، ويـتمُّ العمـل عـلى تفتيـت وقصقـصة القـشّ والـسَّنابل إلى أن تتحوّل باقات الحنطة المدروسة إلى تبن ناعم وحبَّات الحنطة مفروطة من سـنابلها، ونبـدأ بنقـل كل مرحلة من مراحل الحنطة المدروسة النَّاعمة والَّتي أصـبحت تبنـاً وحبّـات حنطـة، إلى مركـز القوشة: الدَّائرة، وعندما تصبح الكومة كبيرة نوعـاً مـا، نثبِّـت الحبـل الّـذي يـربط البغلـة بمركـز الدَّائرة في مركز كومة التِّبن المدروس، وهكذا نستمرُّ ونحوّل كل ما يتمُّ دراسته إلى المركـز وننقـل من الأطراف القسم نصف المدروس، إلى أن ننتهـي مـن دراسـة الحنطـة دراسـة نهائيّـة، عنـدها ننقل الجرجر إلى كومة العدس فالشَّعير وندرسهما بنفس الطَّريقة، ونكوّم الكومة بشكل كـروي، مقبَّبة من الأعلى، فتصبح جاهزة الكومة للتذرية، وننتظر إلى أن يهبَّ هـواءً في اللَّيـل مـن جهـة

الغرب، بحيث أن يكون مناسباً للتذرية فيقوم والدي وإخوتي الكبار في تذرية التّبن، حيث يرفعون كميات قليلة بالملحيب الخشبي ذات الرُّؤوس المدبّبة نحو الأعلى، وبطريقةٍ يتمُّ فصل حبّات الحنطة عن التّبن، ولكن يظلُّ هناك تداخلاً ما بين التّبن الخشن ويدعى القسرة وقسم من حبّات الحنطة، وينقسم التّبن إلى ثلاثة أنواع، التّبن الخشن ويدعى القسرة، والتّبن، والتّبن النّاعم جدّاً ويدعى العُوْر، وتستخدم القسرة كحريق للتنّور، والتّبن كعلف للحيوانات، والعور نخلطه مع الطِّين وقليلاً من التّبن، نستخدم الطِّين لسياع سطوح المنازل وجدران المنازل، كما نستخدم الطِّين الأحمر مع العور لصناعة التّنانير.

كم كانت زوجة عمِّي بولص مشهورة بصناعة التَّنانير، أم ابلحد، بهيّة شمعون عيسكو، حيث كانت تصنع التنّور بطريقة رائعة للغاية وتبيع تنانيرها بعد أن تجف إلى أغلب أهالي ديريك، وما كان يتشقَّق نهائيّاً، لمهاراتها في عجن الطِّين وخلطه بالعور وصبرها وهدوئها وحرفيَّتها العالية في بنائه مرحلة مرحلة وبشكل دائري جميل، وتترك له فتحة كبيرة من الأعلى وفتحة صغيرة من الأسفل!

بعد عملية التّذرية، نغربل الحنطة بـ "الصرَّاد"، منخل كبير، نفرز القسرة والحشائش من الحنطة، وتنزل الحنطة من ثقوب الصُّرَّاد، ثمَّ نغربل الحنطة ثانية بصرَّاد ناعم بحيث تبقى الحنطة في الصّراد وتنزل حبيبات البربور والزّيؤان والأتربة النَّاعمة والتّبن العور ويتمُّ تصفية الحنطة في المرحلة الثّانية، وبعدها يتمُّ غسل الحنطة الخاصّة بالمونة، المخصّصة للبرغل والسَّليقة والطَّحين، نغسلها بالماء الزّلال ونزيل الأتربة ويطوف التّبن فنرميه جانباً، ثم نعرض الحنطة الصّافية المغسولة للشمس قليلاً، إلى أن تجفَّ، ثمَّ ننقلها إلى عنابير كبيرة، ومفرده عنبار أو "كوارة" والكوارة تكون أصغر حجماً، أو في "رسْل"، مفتوح من الأعلى، وفي القرى هناك من يخزّنها تحت الأرض في "جالات" الجيم بثلاث نقط! حفر كبيرة ويحمونها بأكياس النَّايلون ولكن هذه الطَّريقة غير مضمونة حيث تتعرَّض للرطوبة، ولهذا تُخزَّن الجَّالات خلال الصَّيف فقط، ثمَّ يتمُّ نقلها قبل حلول الشّتاء إلى المنازل في الكوارات والعنابر الكبيرة!

قبل أن نطحن الحنطة في الطَّاحونة ونحوّل الحنطة إلى دقيق كي نصنع منه الخبز، يتمُّ تنقية الحنطة على الصّفرة، ويتمُّ تنقية الحنطة ممّا تبقَّى من البربور أو الزِّيؤان أو الحصى الصَّغيرة والأعشاب والحبيبات الغريبة، وتبقى الحنطة فقط مغسولة وصافية من كلِّ شيء، بعدها يتمُّ نقلها إلى الطّاحونة ونطحنها لتصبح طحيناً، وتعجنه أمّي أو أختي إلى أن يختمر، ثمَّ تقطِّع العجين إلى كتل صغيرة وتصنع منه أرغفة مدوَّرة وتتركه يتهدّى قليلاً وتخبزه بالتنُّور إلى أن يتقمَّر، وتجمعه في طشت كبير وتنقله للمنزل ونتناوله على مدى أيام، أشهى وأطيب خبز هو خبز التَّنور الّذي كانت تصنعه أمَّهاتنا أيّام زمان!

رغيف من خبز التَّنور وقليل من الجبن، الجبس، والبطِّيخ أحلى وجبة خفيفة!

الخبز كان وما يزال المادّة الأساسيّة في كلِّ بيوت الفلّاحين، وما كنّا نشبع من تناول أيّة وجبة غذاء مالم نأكل الخبز مع الوجبة، وقد ظلَّ هذا الشُّعور يرافق أغلب أبناء الفلّاحين حتّى الآن وأنا منهم! وكنّا نصنع من القمح، البرغل، والبرغل النّاعم الخاص بالكبّة والكتل، ونسلق حبّات الحنطة كاملة فتصبح سليقة ومنها يتمُّ طبخ الحنطة صاغ، كطبخة الحنطيّة، وأحياناً يتمُّ تجفيف الحنطة وهي فريكة أي خضراء قبل أن تجفَّ، وعندما نجفِّف الحنطة الخضراء وهي حليب، تصبح فريكة، ولونها أخضر، أكْلها لذيذ مع الدُّجاج، وفيها نكهة الفريكة حقَّاً! إضافة إلى صناعة الخبز بعدّة أنواع، خبز التَّنور، خبز الدَّوق أي الصَّاج، وخبز الشكفى، أو الشكافية! والكليجة، وهذه الأخيرة هي حلويات العيد، لذيذة جدَّاً، كما نعمل الشَّمبورك من العجين وفيه حشوة من لحم مفروم مع بصل مفروم وبعض التَّوابل! ما ألذ الشَّمبورك المعمول على الدَّوق: الصَّاج!

تجلِّيات رحلتي إلى حميميات الذَّات، أشبه ما تكون رحلة دافئة إلى فراديس النَّعيم، أهلاً بكَ عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة إلى فراديسي الفسيحة في مروج الرّوح روحي، حيث تنساب معالم الطُّفولة والحياة صفاء الماء الزُّلال!

10

النّوم على العرازيل والتَّمتُّع بمشاهدة النُّجوم واللَّيالي القمراء

نبدأ بفرحٍ كبير بإعداد وبناء عرزيليه في حوشنا الفسيح في بداية الصَّيف، ننقل القرّام، والكاروش والقصب: الجيتكة الخضراء والعيران والخُشِّيلة والأعشاب البرّيّة النَّديّة، ونبنيها بشكل دائري إلى أن تصبح بارتفاع متر تقريباً عن سطح الأرض، ثمَّ نفرشها بالبساط وهي مروش وبرّات، مصنوعة من خيوط الأقمشة، كانت أمّي تعدُّ هذه الأنواع من البساط من الألبسة، تقصُّها شرائح شرائح وتلفّها وتُحوِّلها إلى خيوط بسماكة قنّب، وبألوان متعدِّدة، ثمَّ تأخذها إلى الحائك ويحيك هذه الخيوط ويصنع منها برَّاتٍ ومروشاً، نستخدمها كسجَّاد في أرض غرفنا وفي أيَّام الصَّيف نخصِّص قسما منها ونفرشها فوق العرزيليه، ثمَّ نفرش فوقها دواشك الصُّوف السَّميكة، والوسائد، المخدَّات منها محشوَّة بالصُّوف وبعضها الآخر من ريش الحمام والدُّجاج، لكنَّنا كنّا نستعمل الصُّوف أكثر من الرِّيش، ونتغطّى بألحفة من الصُّوف: الهريّة، صوف الغنم! كانت أمّي تجهّز الدَّواشك والألحفة وتصفّها في بيت "النَّفينة" وهي قبّالة كبيرة في المنزل مخصَّصة لصفِّ الدَّواشك والألحفة أثناء النَّهار، ثمَّ نغطيها في ستارة كبيرة!

كم كنتُ أنطُّ عالياً أثناء بناء العرزيليه، كانت تساعدني على النَّط عالياً، لأنّها كانت تنضغطُ تحتي مثل ريسول، وأحياناً كثيرة كنَّا نقلب أنفسنا "عنطروس"، أي نضع رأسنا فوق الدُّوشك ونقلب أنفسنا، يجنُّ جنوننا من الفرح في اللُّعب فوق العرزيليه، خاصَّة في بداياتها، وكأنّها لعبتنا المفضَّلة، وأحياناً كنّا ننقل قسم من الفرشة فوق سطوح المنزل وننام فوق السُّطوح، يا إلهي كم كانت اللَّيالي قمراء وجميلة، صافية إلَّا من النُّجوم والقمر، نجوم متلألئة، تشعُّ وتسطع وكأنّها على مقربة منَّا، كنتُ أتواصل طويلاً مع النُّجوم، وكأنَّني على صداقة معها، أحياناً كنت أشعر وكأنَّها تتحدّث معي.

كم كنتُ مبهوراً في نجمة الصَّباح، وفي ضياء القمر، منجذب إلى روعـة الـسَّماء، روعـة النُّجوم كانت تسحرني، وكأنِّي نجمة من هذه النُّجوم، أحلم وأنا في حالة تواصل معهـا، أحيانـاً، كنتُ أتخيَّل نفسي "إلهاً"، أحلِّق في هـذا الكـون، وأسـبح في خيـالي لـساعاتٍ، أقهـر الـشَّيطان والأشرار في حلمي المتخيَّل، ثمَّ أستسلمُ للنوم وأنا في تماهيات أحلام اليقظة، فيتـداخل حلمـي مع أحلام يقظتي حتَّى أنّني ما كنت أميِّز أحلامي عن أحلام اليقظة، تتداخل الأحلام مع سحر السَّماء والنَّوم، نسيم عليل يهبُّ من جهة الغـرب، ونتغطّـى تحـتَ اللّحـاف الـسَّميك، أحيانـاً كانت تهبُّ عاصفة خفيفة ويهطل مطرٌ خفيفٌ ويزداد هطوله ونبقـى تحـت اللّحـاف حتّـى ولو استمرَّ المطر لوقتٍ معيَّن، وكان لهطوله حالـة بديعـة وكأنَّنـا في حلـم خـرافي أو أشـبه مـا يكون حالة حلميّة من أحلامنا الَّتي نحلِّق عالياً في استحضارها وتخيُّلها!

لا أنسى وأنا في قمّة الهدوء والتّأمل والتَّواصل مع تلألؤات النُّجوم، وإذ بنقرات جمبش عبدو علانة، وهو يدوزن جمبشه، ليبدأ في جولـة مـن غنائـه وصـوته الـرَّخيم، أسـمع صـوته وموسيقاه وإيقاعه المرافق، والنُّجوم شاهدة على كلِّ هذا البهاء، أنا وسكون اللَّيل والموسـيقى والغناء، تقمّط المدينة المبرعمة بالهدوء والفرح والبساطة، موسيقى وغناء أثناء اللَّيل، والطَّبل والمزمار أثناء النّهار، منذ أن فتحت عيني على وجه الدُّنيا، توغَّلت الألحان والكلـمات عميقـاً، حفظتُ رويداً رويداً الكثير من هذه الأغاني والألحان، شـدّتني أكـثر مـا شـدَّتني أغـاني الفنّـان محمَّد شيخو بألحانه الشَّجيّة الَّتي كنت أسـمعها مـن مـسجَّلتنا منـذ أن كنـت طفـلاً، وأغـاني الفنّان الرّائع محمّد عارف جزراوي الَّتي كنـت أسـمعها مـن الرَّاديـو، وأغـاني عبـدو علانـة في الحفلات الَّتي حضرتها أو سمعتها خلال اللَّيالي الجميلة!

كَبَرْتُ وكـبُرَتْ معـي هـذه الأغـاني والألحـان، ثـمَّ سـمعت لاحقـاً الأغـاني الماردلِّيّـة والسّريانيّة، فأحببْت "شامومر، هاي مانتا، ألفو شلومي وشيني وككـوو دصـفرو حـابيبتو ..."، وكل أغاني الفنّان حبيب موسى الَّتي وصـلتنا ونحـن في أوج حنيننـا للفـن وكـلّ أنـواع الموسيقى، وكيف لو كانـت موسـيقانا الَّتـي انبعثـت مـن قلـب التَّراتيـل ومناجـاة الأرض والسَّماء! أغاني ملك الغنـاء الـسّرياني الفنّـان حبيـب مـوسى المنـسابة مثـل قـوس وقـزح،

كانت تروي عطشنا إلى موسيقانا، ثمَّ جاءت فيروز وعانقتني أغانيها طويلاً، ووديع الصافي بمواويله الصَّادحة، وأم كلثوم وصباح فخري، وفريد الأطرش ثمَّ الأغاني التُّركيّة الَّتي حوّل بعض الفنّانين قسماً من ألحانها إلى أغاني ماردليّة رائعة!

تلوَّنت روحي بموسيقى متنوّعة من عدّة مشارب، فتوغَّلتُ في أعماق هذه الموسيقى الَّتي ترعرعَتْ في عالمي منذ أن كنت طفلاً حتّى الآن، حملتُ هذه الأغاني فوق أجنحتي وأنهار روحي أينما حللتُ وأينما رحلتُ!

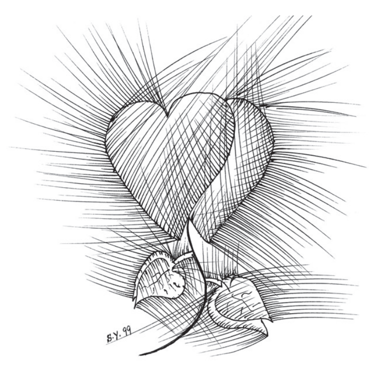
ترعرعتُ في حارة مكتنفة بألعاب لا تحصى، ألعاب الطُّفولة كانت تمشِّط روحنا من أنين وشظف الحياة، نلعب في تلكَ الحارة المكتنزة بذكرياتٍ لا تُنسى، نلعب حتَّى أنصاصِ اللَّيالي ونعود خلسةً إلى بيوتنا موجِّهين أنظارنا نحو عرازيلنا الكبيرة، ونعبر بهدوء على حفيفِ النَّسيمِ تحت ألحفتنا، نعدُّ النُّجوم المتلالئة في قبّة السَّماء، ذكريات محفورة في وهج الذَّاكرة المتلألئة بالفرح والبكاء، كم مرّة حاولت الفرار من ذاكرتي فلم أنجُ من الفرار، ذاكرة نقيّة مبرعمة بالسَّنابل وعبق البخور المتصاعد خلال أيَّام الآحاد والأعياد، ولم أجد بدَّاً من الاِنعتاق من ذاكرتي في متاهات غربتي سوى قلمي حيث يمنحني ألقاً وبهجةً للولوج في اِخضرارِ سهول القمح تارةً وفي أكوام الطِّين تارةً أخرى، ذكريات غارقة في خيوط الحنين، تمنحني فرحاً رغم سماكات الطِّين الَّذي كان يستقبلُ أقدامنا ونحن نعبر أزقَّتنا، متوجِّهين نحو المدارس كي ننقشَ الحروف على دفاترنا الطَّافحة بدموعٍ لا تخطر على بال!

"مراراً صدَّني الشَّارع المتاخم لبيت العزيز عزيز بولو من متابعة المسير، حيثُ أكوام الطِّين كانت تضاهي قامتي الصَّغيرة، وهدير السَّاقية الهائجة كان يهدِّد حقيبتي المدرسيّة، فكنتُ أتراجع مركِّزاً سيري على محاذاة بيت عزيز المقابل لبيت كلّوش، ثمَّ أعبر من الجّهة الخلفيّة إلى أن أصل إلى بيت (اسحق مرادي) المقابل لبيت القس أفريم الرَّاحل في سماوات الغربة، وهناك كنتُ أنظرُ حولي متمتماً، إنَّ المخطَّط الأسلم للوصول إلى الشَّارع الأَسفلتي، هو قطع الشَّارع المؤدّي إلى إعدادية يوسف العظمة، الملاصقة أسوارها عبر الأشرطة الشَّائكة لحوش القس الفاضل أفريم، عابراً باحة المدرسة من خلال فتحة

صغيرة في الشَّريط الشَّائك، أسير من خلف المدرسة كي أخرج من الباب الرّئيسي، عندها أصبح في برّ الأمان!

أيُّ أمان هذا الَّذي كنت فيه وأنا أقطع الأزقّة المرصرصة بأكوام الطِّين والبيوت وباحات المدارس، مبتعداً عن مدرستي أكثر من الاِقتراب نحوها، ولكن مع كلِّ هذا شعور بالفرح كان ينتابني لمجرّد أنّني على شارع أسفلتي سيؤدِّي بي إلى باحةِ مدرستي، مستسلماً لقدري المكتنف بالطِّين والمطر وأحزان الشِّمال. حكّمت يدي على حقيبتي المدرسيّة والَّتي كانت عبارة عن كيسٍ من النَّايلون السَّميك الَّذي خاطته لي أمِّي بدقّة شديدة كي تمنع عبور البلَل إلى دفاتري وكتبي المدرسيّة.

وصلتُ إلى مدرستي، ناظم الطَّبقجلي، .. والتَّلاميذ مصفوفين على مساحة كبيرة من باحة المدرسة، عبرتُ من تحت الشَّريط الشَّائك، بعيداً عن أنظار الأستاذ المناوب عند مدخل المدرسة، أخذتُ ركناً قصيَّاً من جدار المدرسة وبدأت أغسل جزمتي الطَّويلة بسرعة بماء المزريب المتدفِّق من بوري كبير، ثمَّ دخلت خلسة من الجِّهة الخلفيّة مع الطّلّاب المتدفِّقين إثنين إثنين إلى صفوفهم، شعرتُ بفرحٍ كبير عندما جلست على مقعدي وكأنّني وصلتُ إلى قمّةِ جبال هيمالايا*"! ..



11

مقتل كلبنا دف رش

فيما كنتُ عائداً من المدرسة، وجدتُ عشرات النُّسوة والرِّجال والشُّبّان والشَّابات والأطفال محتشدين في حوشنا العتيق، والكثير منهم وقف عند مدخل الحوش وعلى مساحة كبيرة من الشَّارع، فتوقَّعتُ أن تكون مشاجرة كبيرة قد وقعت، لأنّني سمعت قبل دخولي إلى الحوش صوت والدي وهو يهدِّد أحدهم، وحالما شاهدتني النّسوة تقدمْنَ نحوي وطلبْنَ منّي أنْ أهدِّئ والدي، لئلا تتفاقم الأمور وتقع مشكلة كبيرة.

فاجأني مشهد الجمهور الغفير في حوشنا، وسألتُ النّسوة ماذا حصل كي يغضب والدي إلى هذه الدَّرجة، والدي مَنْ يهدِّدُ شاهراً سكّينه الكبّاس، هل تشاجر مع أحد الجيران؟ فأجبْنَ لا، لم يتشاجر والدُك مع أحد.

ولماذا إذاً جنَّ جنونه بهذا الشَّكل؟ لأوّل مرة أجد والدي غاضباً بهذه الطَّريقة ويهدِّد بالقتل شخصاً ما، ولا أفهم تماماً مَنْ يقصد وماذا حصل بالضَّبط؟!

تعالى الزَّعيق والصّراخ وصوت النّسوة والرِّجال والشّبَّان في أرجاءِ المكان، تقدَّمَتْ اِمرأةٌ عجوز منّي وأخذتني جانباً وبدأَتْ تهدِّئني وقالت لي، لقد قتلوا كلبكم "دف رش".

جحظَت عيناي غضباً أنا الآخر، وسألتها، مَنْ قتله؟

الشّرطة قتلته بأمر من مدير المنطقة، ولهذا والدك مزعوج جدَّاً ويهدِّدُ بضرب مدير المنطقة، لأنّه هو الَّذي أمر في قتل كلبكم وكلّ كلاب المدينة.

اِنزعجْتُ جدَّاً لمقتل كلبنا "دف رش"، لم يكن إخوتي الكبار في المنزل، كنتُ أنا وأخواتي ووالدتي، تركْتُ والدي يسبُّ ويهدِّد مدير المنطقة والشّرطة على مزاجه، ويبرِّدُ قلبه كما يحلو له، حتَّى أنّني في قرارة نفسي وافقته على كلِّ ما قاله وما يريد أن يفعله! وقد عبَّر عن غضبه من حريق قلبه، قال مراراً، هل كلبي "دف رش" "كزَّ بوص مرط" أي هل عضَ مؤخرة زوجة مدير المنطقة كي يعطي أمراً بقتل كلّ الكلاب في ديريك؟!

تلملم بعض النّسوة والرِّجال والـشّبان حـول الكلـب وهـو مـسجّى في الحـوش بدمـه!
كانت الدُّموع تنساب من عيون والدي وهو ينظر إلى كلبه المقتول، متوعِّداً بكلِّ غضبٍ، قائلاً، يوم واحد يبقى من عمري راح أشيل حيفك يا "دف رشّ"!

منع الرّجال والدي من الخروج من المنزل، بهذه الحالة وحاولوا تهدئته، ولم أمنعه مـن التَّعبير عن غضبه وغيظه، وذرفتُ الدُّموع عندما وجـدت كلبنـا مقتـولاً ودمـه منـساب عـلى رأسه وصدره والأرضِ مخضّبة بدمائه، كم كان حارساً أميناً لبيتنـا في عـزِّ الـشِّتاء والـصَّيف وفي كلّ الفصول!

كان يعرفنا عن بُعْد، يـشمُّنا، يعـرف جميـع أفـراد الأسرة حتَّـى في أنـصاصِ اللَّيـالي وفي الظَّلمة الدَّاكنة، ويميِّز الجَّيران عن الغرباء، كلب أمين، حرس بيتنا حتَّـى آخـر رمـق في حياتـه، مقابل قليل من الطّعام، لم يحافظ كل مدراء المنطقة على أمن وسلامة بيتنا مثلما حافظَ عليه كلبنا "دف رشّ"!

خسارة، رئيس ومدير الأمن الدَّاخلي في المنطقة يعطي أمـراً بالقـضاء عـلى أمـن أسرتنـا الدَّاخلي، تخلخلَ أمننا، هل سيحرس مدير المنطقة بيتنا أفضل من كلبنا "دف رش"؟!

آهٍ يا "دف رش"، قتلوك الظّالمين وقتلوا معك أمننا وسلامنا. مَنْ يستطيع إيقاف غـضب والدي، كلُّ همَّه أن ينتقم من قاتلي كلبه.

مراراً كرّر والدي، هل كَزَّ "دف رش بُوص مـرط" مـدير المنطقـة كي يقتلـه؟! هـل عـضَّ "دف رش" مؤخرة زوجة مدير المنطقة كي يعطي أمراً بقتله؟!

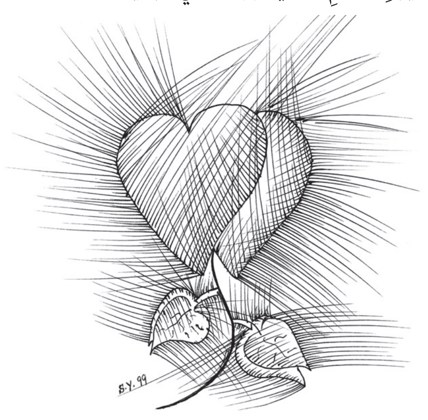
لم يؤذِ كلبي أحداً، لم يتمكَّن أحداً من الاِقتراب من بيتي طوال وجوده في الحوش، كـان حارسي الأمين وحارس بيتي وأولادي ودوابي.

مَن سيحرسُ بيتي بعد مقتل "دف رش"، وكيف سأحـصلُ عـلى كلـبٍ أمـين مثـل "دف رش"؟!

هدَّأ الرِّجال من غضب والدي، جاء عمِّي، وزوجة عمِّـي وبعـد قليـل جـاء إخـوتي مـن العمل، هدَّأ الجَّميـع والـدي، بكينـا عـلى "دف رشّ" وشـيَّعناه بحـزنٍ إلى مثـواه الأخـير، كأنّـه

أحد أعضاء أسرتنا! حتَّى بعض الجِّيران ترقرقت دموعهم، تعاطفاً مع والدي وحزناً على مقتل "دف رش" برصاص الشّرطة.

رحل دف رشّ وظلَّت ذكراه محفورة في ثنايا الحنين إلى الذَّكريات البعيدة، الَّتي ظلَّت وستبقى مرفرفة فوق خيوطِ أحلامِ الحنين إلى الماضي البعيد!



12

طاسات السَّليقة

كم كنتُ أحبُّ السَّليقة، لا أتذكّر قاقبة من قاقبات السَّليقة، ولا دستاً من الدُّسوتِ فَلِتَ منّي، لا في حارتنا ولا في الحارات المجاورة من حارتنا.

كنّا نهجم على دست السَّليقة بشهيّة مفتوحة، وكأنّه من مخصَّصاتنا، نحمل طاساتنا وابِتساماتنا مرسومة على وجوهنا وقلوبنا وأرواحنا، متّجهين نحو عبقِ السَّليقة، يعلوها بخار ندي منبعث من أشهى ما في نكهة الحنطة.

كانت طاستي أكبر من بقيّة الطَّاسات، يسألني صاحب السَّليقة، معلِّقاً بدعابةٍ معهودة، لماذا طاستكَ أكبر من بقيّة الطَّاسات؟

أجيبه بعفويّة طفوليّة، لأنّها حصَّتي وحصّة أختي الصَّغيرة.

ببشاشةٍ يأخذ طاستي ويقبِّبها على التَّمام، يفوح منها البخار، حبّات شهيّة ولذيذة، أرشرش عليها قليلاً من الملح بدون سمنة وآكلها بشهيّة غامرة. ما كنتُ أحبّ السَّمنة نهائيّاً، ومع أنّني كنتُ أركّز على تناول السَّليقة أكثر من بقيّة أقراني، لكنّي بقيتُ نحيلاً أكثر من اللَّازم، وكأنّ السَّليقة ما كانت تأخذ مفعولها، طفولة جميلة، معجونة بعفويّة رائعة، كبرنا وكبرَتْ بنا هذه الذّكريات البديعة، وظلَّت ترفرف عالياً في أبهى تماوجات مرامي الحنين.

كانت أختي كريمة متمرِّسة جدَّاً في دقِّ السَّليقة في جرنٍ حجري بعد تجفيفها، تحمل داقوقاً خشبيَّاً وتدقُّ السّليقة على إيقاعِ "حمُّو هايي" وأمِّي ما كانت تجاريها، لهذا كنتُ أساعدها وأدقُّ بالنِّيابة عنها مع أختي بين حينٍ وآخر، لكنِّي ما كنت ماهراً في الدَّقِّ ولا في الحفاظِ على توازن حركةِ الدَّاقوق أثناء صعوده وهبوطه، حيث أكثر من مرّة كان داقوقي يصطدم مع داقوق أختي، فيقع الدَّاقوقان على أطراف الجرن، فتنفرش الحنطة وتتطاير حول الجّرن، ونضحك على داقوقي الخارج عن إيقاع "حمُّو هايي"! وشيئاً فشيئاً تعلَّمتُ

كيف أرفع داقوقي وأدقُّه في الوقت المناسب، تفادياً من الاِصطدام مع داقوق أختـي، وهكـذا كنتُ واحداً ممَّا وُزِّعَتْ عليهم مهام دقِّ الحنطة من قبل بعض الأسرة في كلِّ عام أثنـاء دقِّهـا، حيث كان أخي الّذي يكبرني يتهرّب من دقِّ السَّليقة، متذرِّعاً أنّني أكثر منه مهارةً في استخدام الدَّاقوق، وبهذه المهارة الَّتي تعلَّمتها ورَّطْتُ نفسي بنفـسي، لكنِّـي كنـتُ أشـعر بفـرحٍ عنـدما أقدِّم عروضي الدَّاقوقيَّة بطريقة صحيحة، إلى درجة أنَّ والدي ما كـان يتركنـي في حـال سـبيلي بدون تعليق، مؤكِّداً بأنَّ الَّتـي تتزوَّجنـي سـتكيِّف بي لأنَّنـي سأسـاعدها في دقِّ الحنطـة، كنّـا نضحك إلى درجة أنَّ داقوق أختـي نفـسه كـان يختـلُّ إيقاعـه، فيـصطدم في داقـوقي فتتنـاثر الحنطة، ثمَّ أقومُ متوجِّهاً نحو أبي وأقول له والـلـه لازم أنـت تلملـم الحنطـة المبعـثرة، لأنَّـك السَّبب في كلِّ ما حصل معنا، فيزدادُ ضحكاً ثمَّ تنادينا أمِّي "الحَمْصِيْ قَرْعُوْنة " جاهزة تفضَّلوا كلوا.

طفولة ملوَّنة بالبابونج والزَّنبق البرّي وقهقهات الضّحك تخرج من أعماقِ القلـب عـلى إيقاع "حمُّو هايي".

13. مسابقة وأنا في الصَّف السَّادس لامتحان المواد الاجتماعيّة

تاريخ جغرافية تربية وطنيّة مع بنات مدرسة خولة بنت الأزور

حالما خبَّرنا الأستاذ مصطفى أحمد، عن موعد اِمتحان المسابقة، حضَّرتُ مادّة الاِمتحان بشكلٍ مكثّف، ولخّصت كل ما هو مطلوب من المواد الثَّلاثة، وقرأتها ليلة الاِمتحان وراجعتها في صباح يوم الاِمتحان أيضاً.

أتذكّر جيّداً أنَّ القاعة كانت نفس القاعة الَّتي أصبحت فيما بعد مستودعاً للكتب المدرسيّة. جلسَتْ بجانبي وعلى نفس المقعد الطَّالبة مارتا قرياقس، عينان سوداوان، ممشوقة القوام، كنتُ قد حضَّرتُ الاِمتحان بشكلٍ جيّد، لكن رهبة كبيرة سيطرت علينا لمجرَّد أنَّنا سنخوض الاِمتحان مع البنات كنوع من المنافسة!

أجبتُ عن الأسئلة بكلِّ هدوء ودقّة وراجعت إجاباتي، وبقي حوالي 20 دقيقة من الوقت، همست للطالبة الَّتي بجانبي فيما إذا تريد مساعدة ما، فزّوَّرتني، واِعتبرَتْ نفسها أعلى من أن أساعدها وأعلى من أن تطلب منّي مساعدة ما حتّى ولو كانت بحاجة لذلك!

راقبنا الأستاذ مصطفى أحمد ومعلّمة البنات، كانت المراقبة شديدة وأسماؤنا مغلقة على أوراق الإجابة وكأنّنا نخوض اِمتحانات للثانويّة العامّة.

كان معنا آنذاك الطَّالب جتّو أحمد، عمر رمضان، عمر الخالد، طاهر عبدالرُّحمن، كابي نعمان، نعيم كبرو، خليل ابراهيم، .. بحدود 40 طالب في الصَّف السَّادس.

قبل أن أسلِّم ورقتي قلت للطالبة الّتي بجانبي، لو عندك سؤال ما لا تتذكَّرين تعداداته سأذكِّركِ به، فقالت وهي تزوِّرني سلِّم ورقتك، مين مسكك!

سلّمت ورقتي، وانتظرتُ رفاقي. كنتُ من أوائل الَّذين سلّم ورقته، خرج الطُّلّاب رويداً رويداً، اِنتهى الاِمتحان، دخلنا إلى الصَّف، بعد أن اِستلم مدرّس الصَّف والمعلّمة أوراق الطّلاب والطّالبات.

قال الأستاذ مصطفى بعد أسبوعين من الآن، سنعلن عن أسماء النّـاجحين والنَّاجحـات، والطُّلاب والطَّالبات الثَّلاثة الأوائل سينالون شهادات تقديريّة، مرحى من إدارة المدرسة!

بعد ثلاثة أسابيع حضر أستاذ المادّة ومعه ظرف كبير فيـه الإجابـات، مـصحّحة بـاللَّون الأحمر، كلّ طالب ينتظر نتيجته.

بعد مقدّمـة قـصيرة قـال، سـأوزّع الآن أوراق الإجابـات وهـي مدوّنـة عنـدي في دفـتر العلامات، وكلّ طالب لديه ملاحظة معيّنـة ويـشعر أنّـه مظلـوم أو هنـاك خطـأ مـا في جمـع العلامات، ممكن أن يرفع يده ويطالب بحقّه!

كانت العلامة من ستين، كل مادة 20 درجة، بدأ يقرأ العلامـات، تجـاوزت علامـة جتُّـو أحمد فوق الخمسين بقليل، وأغلب الطُّلّاب تفاوتت علاماتهم بـين الثَّلاثـين والأربعـين وقـسم منهم بين الأربعين والخمسين وثلاثة طلاب بما فيهم جتُّو أحمد قفزوا عـن الخمـسين، فظلّـت الورقة الأخيرة، شعرْتُ برهبة وقلق ونوع من الخوف، وإذ به يقول صـفّقوا لـصبري صـاموئيل يوسف، حصل على العلامة التَّامّة 60 من 60.

نطّيتُ فرحاً ونظرْتُ إلى زملائي وهم يصفِّقون لي، شعرْتُ أنّني أطير مـن الفـرح، كنـتُ أتمنّى لو كان والدي بعقاله وكوفيّته وشرواله موجـوداً، ويـرى كيـف زمـلائي يـصفِّقون لي، ثـمَّ صفَّقوا لجتُّو أحمد بعد أن أعلن عن ترتيبه الثَّاني، والدَّرجة الثَّالثة كانـت مـن نـصيب إحـدى الطَّالبات!

تمَّ دعوة إدارة خولة بنت الأزور مع إدارة المأمون الرِّيفيّة لحضور اِحتفال يوزِّعون فيه الشَّهادات التَّقديريّة من إدارة المدرسة للمتفوِّقين الثَّلاثة الأوائل!

بعد مقدّمة من مدير المدرسة الأسـتاذ جـدعون رميحـان، ومـديرة خولـة بنـت الأزور، تحدّث الأستاذ مصطفى ومعلِّمة البنات، ثمَّ قرأ مدير المدرسة أسماء الأوائل مع درجاتهم:

حصل على العلامة الأولى والتّامّة الطَّالب صبري صاموئيل يوسف.

ثمّ قرأ المدير التَّرتيب الثَّاني لجتُّو أحمد، وقرأ اسم الطالبة الَّتي حـصلت عـلى التَّرتيـب الثَّالث.

صفّق الطُّلاب والطَّالبات لنا وذهبتُ إلى المنصّة لأستلم شهادة التَّقـدير وسـلّمتُ عـلى المدير والمديرة وأستاذ المادّة ومعلِّمة المـادّة. وعـدتُ وقلبـي يـدقُّ مـن الفـرح والبهجـة، ثـمَّ تبعني جتّو فالطَّالبة الثَّالثة.

سمعتُ الطَّالبة مارتا تقول لرفيقتها، لَكْ شوفي شـوفي هـذا الطَّالـب الَّـذي حـصل عـلى العلامة التَّامّة، كان قاعد جنبي وسـألني أكـثر مـن مـرّة فـيما إذا أحتـاج مـساعدة مـا، لكنِّـي رفضتُ أن يساعدني!

جاءت وسلّمت عليّ، أنتَ كنت قاعد على نفس مقعدي بالاِمتحان.

ابتسمتُ لها بفرح، نعم كنتِ قاعدة جنبي، وحاولتُ عـدَّة مـرات أن أسـاعدك، لكّنـكِ رفضْتِ ذلك.

ما عرفت اِنّك هيك شاطر.

وهلّا عرفتِ.

ضحكت وقالت، أنتَ فرحان؟

نعم أنا فرحان، فرحان كتير كتير.

شو يشتغل أبوك صبري؟

والدي فلّاح، يشتغل بالفلاحة.

برافو، الـلـه يوفّقك، تعرف صبري هلّا أنا عم أحسدك!

إن شاء الـلـه أنتِ كمان تنجحي في مواد أخرى وتكوني من الأوائل!

الـلـه يسمع منك يا رب.

تعرفي، أنتِ كتير حلوة.

شكراً، هاد من ذوقك.

ودّعتني بابتسامة، وظللتُ أتذكَّرها إلى أن أصبحت معلِّمة، لكنِّي لا أظن أنَّ مارتا قرياقس تتذكّر كلّ هذه التَّفاصيل المنقوشة على واحات الذَّاكرة البعيدة، وهكذا نكبر وتبقى قامات الأصدقاء والصَّديقات والأهل، وأزقّتي الَّتي احتضنتني طويلاً، شامخةً فوق شواطئ الذَّاكرة المسربلة بالحنين.

14. قيامي بأعمال سحرية وأنا طفل،

آكل حبّات الحنطة ثمَّ استخرجها من بطني سليمة

يتراقصُ أمامي الآن مشهدٌ بديعٌ من شطحاتِ عوالم الطُّفولة، حيثُ أنّني كنتُ قد اخترعتُ لعبة سحريّة من محض خيالي وأنا طفل، أستعرضها لنساء الحارة وبعض الرِّجال والشَّباب وأقراني الأطفال. تتلخّصُ اللُّعبة أنَّني كنتُ آكل خمس حبّات حنطة وأبلعها، ثمَّ أخرجها من بطني حبّةً حبّة، بحركات سحريّة طفوليّة، وأضعها تحت أصابع اليد اليسرى، ثمَّ أنفخ فوق سطح يدي وأرفع أصابعي فتختفي حبَّات الحنطة، فيندهشن النِّساء وكل مَن حولي، قائلين سبحان اللـه، ما هذا الولد الغريب العجيب!

لم أقدِّمْ عروضي آنذاك مجّاناً، لأنّها كانت عروضاً من نوعٍ خاص، فقد حصلْتُ مراراً على "الحليلة والباستيق وكمشات الزَّبيب" من النِّساء لقاء عروض ألعابي السّحريّة! وسرّ هذه اللُّعبة يكمن في فكرة بارعة أبدعتها من وحي خيالي، للحصول على الحليلة والباستيق، وأكثر النِّساء كرماً كانت خالة سفري أم يعقوب وخالة عزو أم فاروق، وقد نجحت في تطبيق ألعابي السّحريّة بمهارة فائقة، لدرجة أنّني كنتُ محاصراً بشكلٍ دائري، من قبل عشرات النّساء والرِّجال والأولاد يراقبونني عن كثب، ومع هذا لم يكتشف أحدٌ من هؤلاء أسرار اللُّعبة الخفيّة! وقبل عرض لعبتي كنتُ أشرحها للحاضرين والحاضرات خطوةً خطوة، ثمَّ أطبِّقها على أرض الواقع بنجاح!

تتلخّص اللُّعبة بأنَّني أقرض حبّات الحنطة واحدة واحدة، بحيث يسمع الجميع صوت الحبّات عندما أقرضها، وأترك حبّة سليمة أخبِّئها في تجويف فمي، ثمَّ أضع يدي على بطي وأقوم بحركات على أنَّني سأخرج الحبَّات سليمةً من بطني، فأخرج الحبّة السَّليمة وأبرزها برأس لساني فيراها الجميع ثمَّ أظهر للجميع على أنّني أمسكها وأضعها بهدوء تحت إصبعي، ولكنِّي في حقيقة الأمر لا أخرجها من فمي بل أعيدها، وهكذا أقوم بنفس الحركة خمس مرَّات، فيرى الجَّميع حبَّات الحنطة وأنا أضعها تحت أصابع يدي

اليسرى ثمَّ أقوم ببعض الحركات، وأردِّد بعض الكلمات السّحريّة، بعدها أنفخ فوق يدي على أساس أنَّني سأطيّرها بقدراتي الخارقة هاهاهاها! أرفع يدي وأعرضها لهم خالية تحت أصابعي من حبّات الحنطة!

عندما يرون نجاح لعبتي، يردِّدون سبحان اللـه! هذا الولد سحّار خالص.

وهكذا كانت تنطلي حركاتي الطُّفوليّة على بساطة النّساء والرِّجال وأحصل على كمشات الزّبيب وقطع الحليلة والباستيق.

أتذكَّر جيّداً عندما شبَبْتُ عن الطَّوق وأصبحْتُ مدرِّساً منتدباً لمادَّة اللُّغة الإنكليزيّة، وفيما كنتُ عائداً إلى منزلي، تقدَّمَتْ نحوي خالة سَفْرِي، إحدى النِّساء اللَّواتي كنتُ أقدِّم لهنَّ عروضي الطُّفوليّة، وقالت لي اللـه يخلِّيك أستاذ صبري، قل لي كيفَ كنتَ تعمل لنا سحراً عندما كنتَ طفلاً؟!

ضحكتُ وقلت لها اللـه يخلِّيك خالة سفري اتركيني بحالي، ستفضحينا.

أجابتني، واللـه ما أتركك إلّا إذا قلتَ لي كيف كنتَ تعمل تلك اللُّعبة وأنتَ طفل، وبعد إلحاحٍ كبير منها، قلت لها سأقول لكِ السّر، لكن شريطةَ أن لا تبوحينه لنساء الحارة، فقالت لماذا؟ فقلت لها مَنْ يدري، ربَّما أحنُّ يوماً ما إلى تلك اللُّعبة وأقدِّمها لنساء الحارة مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة لن أرضى بكمشة زبيب أو بقطعة حليلة، فقالت ماذا تريد منّا هذه المرّة؟ فقلت لها بدِّي على الأقل جَنبة خِرْج جبش (جبس)، أو سلّة عنب "بحدو".

ضحكتْ ضحكاً رائعاً وضحكتُ أنا الآخر، خرج زوجها غاضباً من المنزل على صوت قهقهاتنا وهو يبربر، اللـه يخرِّب "بيتكن وبيت بيتكن مو صوت ضحْكن عَمْ يصل لآخر الدِّنيِه"، فقالت له خلّي يصل أين ما يصل، تعا شرّف اسمع ما يقوله صبري وخلّي صوت ضحكك ما يصل إلى "باجريق"!

عندما سمع تفاصيل ما حصل، ضحك هو الآخر بأعلى صوته، لحظات ممتعة، جميلة فيها من الصَّفاء والفرح والحنين الشَّيء الكثير!

15

اِحتيالي الطَّريف على الموجّه حبيب كوركيس أثناء سحب القرعة

عندما اِنتهيتُ من دراسة المرحلة الاِبتدائيّة التحقت بإعداديّة يوسف العظمة، وقد حصل معي موقف طريف وبديع للغاية، يدور هذا الموقف حول موضوع سحب القرعة لفرز الطُّلاب إلى شعبة اللُّغة الإنكليزيّة وشعبة اللُّغة الفرنسيّة، وكان هاجسي الأكبر أن أكون من عدادِ الطُّلاب الَّذين سيدرسون مادة اللُّغة الإنكليزيّة كمادّة أجنبيّة جديدة، ففكَّرتُ بطريقةٍ ناجحة، أجتاز عبرها هذه المحنة الَّتي راودتني منذ أنْ اِنتهيتُ من المرحلة الاِبتدائيّة. ذهبتُ لوحدي إلى إدارة الإعداديّة، وألقيت نظرة من بعيد لبعيد، لآخذ فكرة عن كيفيّة سحب القرعة، فوجدتُ أغلب الّذين سحبوا القرعة كانت فرنسيّة، فاقتربتُ شيئاً فشيئاً من الطُّلاب وهم يسحبون قرعتهم، وراقبتُ الجوَّ العام بدقّة، ودقَّقتُ بالخطِّ وقصاصة الورقة الخاصَّة بالقرعة، ثمَّ خرجْتُ من الإدارة دون أن ينتبه إليّ أحد الموجِّهين.

كان الأستاذ الرَّاحل حبيب كوركيس هو الَّذي يشرف على سحب القرعة، دخلتُ أمانة السِّر وطلبتُ ورقة بيضاء على أساس أنّها للموجِّه، أخذت الورقة وخرجتُ بعيداً عن أسوار المدرسة لتطبيق مخطَّطي في خوض أوَّل تجربة في خلخلة القوانين الخنفشاريّة السَّائدة آنذاك في فرز اللُّغات، حيث لم يكُنْ لي دعماً ولا سنداً، وتبيَّن لي أنَّ أغلب القصاصات الورقيّة هي فرنسيّة، إلَّا ما قلَّ وندر إنكليزيّة، وتبيَّن لي أيضاً أنَّهم حسبوا حسابهم كي تكون أغلب نتائج القرعة فرنسيّة كي يحوّلوا عدداً كبيراً منهم فيما بعد إلى الإنكليزيّة من خلال الوساطات، وهكذا أحببتُ أن أخوض مغامرة فريدة من نوعها بالنّسبة لطفل، وبهدوء تام، وبعيداً عن الوساطات.

أمسكتُ الورقة وقسَّمتها إلى قصاصات ورقيّة بنفس حجم ورقة القرعة الَّتي دقَّقتُ في حجمها وكيفيّة طيِّها، وبدأتُ أقلّد خطّ الموجِّه لأنَّني دقَّقتُ جيّداً كيف كان يكتب إنكليزي، فرنسي، ورحت استعمل قلم ناشف بيغ، أكتب إنكليزي عدّة مرَّات، مُقلِّداً خطَّ الموجّه ثمَّ اِخترت أكثر كلمة قريبة من خطِّه وطويتها ووضعتها بين السّبابة

والوسطى، ورميتُ ما تبقَّى من القصاصات، ثمَّ دخلت غرفـة الإدارة أنتظـر دوري في القرعـة، وعندما جاء دوري وضـعْتُ يـدي في الكـيس لأسـحب قرعتـي وهنـاك أخرجْـتُ الورقـة الَّتـي كتبتها، وقلت يارب تطلع قرعتي إنكليزي يا رب تطلع إنكليزي، ثـمَّ أعطيتهـا للموجـه، فنظـر إليّ وهو يبتسم لي، هل تريد أن تكون قرعتك إنكليزي؟ فقلت له نعم أستاذ، لكـن أخـاف أن تكون فرنسي، فقال لي أنتَ وحظّك.

أظهرتُ له أنَّني في غاية القلق تفادياً لأيِّ شك، فتح الورقة، ثمَّ قال عجيب! فقلـت مـا هو العجيب يا أستاذ، فقال طلعت إنكليزي، صرختُ بفرح وقلت أبوس الـلـه طلعت قُرعتـي إنكليزي، شكراً أستاذ شكراً.

سجَّل اسمي في شعبة الإنكليزي، وهو يتمتمُ حظّك يشقّ الحجر، فقلت له لماذا أستاذ، فقال لأنَّ أوراق القُرعة الخاصَّة بالإنكليزي أقل بكثير من الفرنـسي ومـع هـذا كانـت قرعتـك الَّتي اِخترتها إنكليزي لهذا فأنتَ محظوظ، همستُ في قلبي لِمَ لا أكون محظوظاً وقد أدخلتُ "كولي" عليكم دون اللُّجوء إلى واسطة فلان أو علَّان؟! وهل ثمّة مَن يهتمُّ بفقراء ذلك الزَّمان؟!

تابعت دراستي وحصلتُ على الإعداديَّة، متقدِّماً على أقراني باللُّغة الإنكليزيّة وحصلتُ على التَّرتيب الأوّل على دفعتي في المرحلة الثَّانويّة باللُّغة الإنكليزيّة، وهكذا كان لتلك الحركـة الطُّفوليّة منعطفاً رائعاً وهامَّاً في حياتي الدِّراسيّة!

كـان هاجـسي وشـغفي الوحيـد أن أتـابع دراسـاتي في قـسم اللُّغـة الإنكليزيّـة، ولكـن الظُّروف الاقتصاديّة المريرة الَّتي كنَّا نعاني منها، أحالت دون تحقيق رغبتي، فالتحقت بالصَّفِّ الخاص، آخر دورة من نظام السَّنة الواحدة، اِختزالاً للفقر، ووصولاً إلى لقمـة العـيش بأقـصر الطُّرق، وبعدها ممكن أن أخطِّط بكلِّ هدوء للوصولِ إلى الأهدافِ البعيدة!

16

تأجير حوشنا لحفلات الزّفاف

كانت أغلب حفلات الزَّفاف أيَّام زمان في الهواء الطَّلق، تتمُّ في الشَّوارع العريضة والسَّاحات العامّة. وبعضها كانت تتمُّ في المقاهي الكبيرة، قبل تأسيس مقاصف ومنتجعات أبو سهيل ومنتجع لطيف ملكي وشكري عازار أبو عازار وغيرها من المنتجعات الَّتي تأسّست لاحقاً، بعد عبوري البحار!

حضرتُ أغلب الحفلات الَّتي كانت في حيّنا والأحياء القريبة من بيتنا العتيق، وعندما شببنا عن الطَّوق، كنَّا نشارك في الرّقص خاصّة رقصة خانمان لسهولتها أولاً، ولأنَّ الحي كلّه كان بمثابة مدعو للمشاركة في الحفلة حتَّى ولو لم توجّه إلى أحدنا بطاقة دعوة!

فجأةً فيما كنت أعبر الزُّقاق المؤدِّي إلى بيتنا في ديريك العتيقة، وإذ بجمهور غفير يحتفل بحفل زفاف أحد الجّيران من الحيِّ في حوشنا الكبير، وتكرَّرت الحفلات وأصبح حوشنا كأنَّه خاص بحفلات الحارة، وإنَّ كثرة حفلات الزَّفاف الَّتي تمَّتْ في حوشنا، جعلتني أن أفكِّر بطريقة هادئة وعمليّة لإيجاد حل لهذه المشكلة، فخطر على بالي تأجير حوشنا للذين يَودُّون أن يقيموا فيه حفلات زفافهم، وعرضتُ الفكرة على والدي بتأجير حوشنا أثناء إقامة الحفلات فيه مقابل مبلغ من المال، فأعجبته الفكرة، لأنَّ أصحاب الحفلات كانوا يستهلكون ماءً وكهرباءً على مدى أيَّام، ويحجزون حرِّيتنا خلال احتفالات الزَّفاف، فلماذا لا نستعيد حقَّنا مع قليل من الرّبح؟

وهكذا خوَّلني والدي أن أتفاوض مع أصحاب الحفلات وأنا فتى في بداية مراهقتي، كنتُ أحدِّد السِّعر بحسب عدد أيَّام الحفلة، يوم، يومان ثلاثة أيّام! واشترينا كمِّيات كبيرة من الكهرباء مع أشرطتهم (بورتاتَيفات) بحيث أن يتمَّ إضاءة الحوش بشكل جميل، وبهذه الطَّريقة تخلَّصنا من مسألة الإحراج بأن نقول لا لمَنْ لا يدفع قيمة إيجار

الحوش، فأصبح بمثابة مقصف لحفلات الزَّفاف والخطوبة وما شابه ذلك، نقـدِّم المكـان والمـاء والكهرباء!

كان حوشنا مسوَّراً ومناسباً جدَّاً لحفلات الزَّفاف وحفلات المناسبات الأخرى الَّتي جرت العادة في حينها أن تتمَّ في الهواء الطَّلق!

كنّا نتَّفق غالباً قبل أسبوع من يوم الحفل أو أكثر على تأجير الحوش، ومـراراً فاجـأتني الحفلات الَّتي كانت تُقام في حوشنا، وأنا آتٍ مـن دوامـي المـدرسي، خـلال المرحلـة الإعداديّـة والثَّانويّة، وإذ بحفلات الزَّفاف تغصُّ بالمدعوين في حوشنا الكبير. أتوقَّـف مثـل الغريـب عنـد مدخل الباب الخارجي، خاصّة لو كانت حفلة الزَّفاف لعريس من حارة أخرى، فـلا يعرفـونني المدعوين على أنَّني من أصحاب الدَّار، أحاول الدّخول إلى بيتنا، فلا أستطيع من شدَّة الزُّحـام، لكنّي سرعان ما كنتُ أجد حلولاً مناسبة للوصول إلى غرفـة الجلـوس، فـأعجبني أحـد الحلـول الرَّائعة، وهو أن أرقصَ من أقرب نقطة من باب الحوش مع الدَّبكة الَّتـي يرقـصها المحتفلـون في تلك اللَّحظات، والدّبكات كانت إمَّا خانمان أو دبكة العادي المتميِّـزة بهـزّ الكتفـين، ودبكـة هلاية، وكنت أجيد هذه الدَّبكات بمهارة كبيرة مع رقْصاتِ الكـرد أنفـسهم، وهكـذا أمـسك في المكان الَّذي يروق لي، وأرقـص وتـدور الدَّبكـة إلى أن أصـل عنـد بـاب المنـزل، فـأترك الـرّقص وأدخل إلى المنزل، معالجاً مشكلة الوصول إلى المنزل عبر الرَّقص.

آكل قليلاً من الزّاد، ثمَّ استبدل لبـاسي المـدرسي وأرتـدي مـا ينـاسـب حفـلات الزّفـاف، وأعود متابعاً الرّقص وكأنَّ الحفلة هي حفلتنا، فتحسّن رقصي كثيراً من خلال ممارسـة الـرّقص في هذه الدّبكات، إلى درجة أنّني كنـتُ أرقـصُ أحيانـاً في رأس الكوفنـدة* أي في رأس الدَّبكـة وأهزِّها هزّاً، خاصَّة دبكة العادي وعلى إيقاعـات "هـالي كنـي لي لي" ومـا يـشبهها مـن إيقـاعٍ سريع!

لا أنسى أبداً إيقاع الطّبل والمزمار "دْرَنْدَا قُتكْ، دْرَنْدَا قُتكْ"، خاصَّة عنـدما كـان يأخـذه الحـماس عـازف المزمـار أحمـو علانـة، وعـازف الطّبـل سـعدو مطـرب ويقـوم مـردِّداً عبـارة "الـشَّاباش" عـلى رأس أحـدهم، وهـي تحيّـة تكريميّـة لأحـد الرّاقـصين، فيقـدِّم الـرّاقص لـه

مبلغاً من المال. وفي بعض الأحيان كان أهل العريس والعروس يدعون عازف الكمجاية حسينو أو أكرمو، وتتميّز موسيقاهم باستعراض ملاحم غنائيّة، يطلقون عليهم الكرد: "شرّات" وكانت فعلاً أغاني يتخلّلها سرد ملحمي قصصي عن أحداثٍ فيها حماس كبير، وأحياناً نرى فجأةً عازف الكمجاية ينحني قليلاً أمام أحد الرّاقصين، كنوع من التّكريم على شاكلة "الشّاباش"، ويردِّد أحياناً اسم المُنحنَى أمامه في سياق الغناء، فيخرج المُحتفى به من جيبه بعض الفلوس كمكافأة ويقدِّمها لعازف الكمجاية فيتشجّع ويغنِّي بحماس وفرحٍ منقطع النّظير، ونحن نزداد حماساً في الرّقص، ويطغى على الجوِّ فرحاً عميقاً ونتصبَّب عرقاً، ولا نتعب حتَّى من التَّعبِ، بسبب الفرح الغامر في قلوبنا!

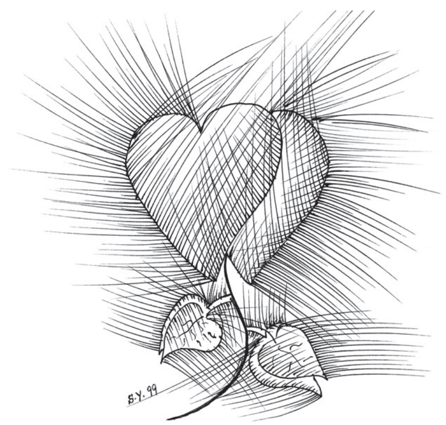
أتذكَّر الحفلات الَّتي قدِّمها المطرب عبدو علانة بصوته الرَّخيم، وجمال سعدون، ثمّ ظهر لاحقاً علو وأخته زوزان يقدِّمان أغاني رائعة، كما شارك في تقديم الكثير من الحفلات الفنّان الأستاذ عادل فقّة المعروف بصوته الجَّميل.

وظهرت فرق موسيقيّة سريانيّة أغلب عازفيها من بيت إيليا، بقيادة اشبيني إيليّا إيليّا وعازف العود والجّمبش موسى إيليا وعازف العود والجّمبش الفنّان الرّائع جوزيف إيليا، المتميّز بمهارات مبهرة بالعزف على العود والجمبش، حيث يستطيع أن يعزف أيّ لحن تقدِّمه له بشكل سماعي، يمتلك ريشة غير مسبوقة آنذاك، وشارك عازف الكمان عيسى شني، ومنير معجون، وعازف الإيقاع دنحو الفرّان، مع المطربين كميل حنَّا، أدوار خوكاز وخاجيك ساوة وأديب كوركيس الملقب أديب قشقش وبسّام توما وبرز الفنَّان الكردي عدنان إبراهيم يغنّي الأغاني ماردلِّية والعربيّة وموخّراً بدأ يغني أهم الأغاني السّريانية التي غنّاها الفنّان الملك حبيب موسى، وظهر الفنّان طارق مراد وقدَّم أجمل الأغاني وفهد مراد، وإدمون موسى وعيسى سفر وغيرهم من الفنَّانين الَّذين ظهروا بعد اغترابي وقدَّموا أجمل الأغاني الماردلِّية والسّريانيّة والكرديّة والعربيّة، كما غنّى بعضهم أجمل الأغاني بالتُّركيَّة أيضاً!

ديريك منبع الإبداع في الألحان والأغاني والرّقص والشِّعر والفن والمسرح والثَّقافة والرّياضة. أتذكَّر كم كانت فرحتنا كبيرة عندما فاز بجدارة الأستاذ القاص والرِّوائي نعيم

إيليا ببطولة الجُّمهوريّة للرجال في الشَّطرنج، وحقّق نجاحات باهرة على مستوى بـرلين بعـد اغترابه ثمَّ تفرّغ لكتابة الأدب والأعمال الرِّوائية.

ستبقى ديريك مرفرفةً في واحات الذّاكرة بكـلِّ أفراحها وأتراحهـا، طالما حنينـي إليهـا يزدادُ يوماً بعد يوم، من خلالِ تنوّعات حبق الإبداع بكلِّ صنوفه وأجناسه وإنسيابيّة عطاءاته، فيزدادُ شوقي وحنيني إلى ديريك، مسقط الرَّأس المعبَّق بأبهى تدفُّقات مروج فنونِ الإبداع!



17

من حفلات الزَّفاف إلى حفلات قطعان الأغنام

ومن حفلات الزَّفاف إلى حفلات قطعان الأغنام، أطبِّق مخطَّطاتي، فقد إمتاز والدي بطيبة القلب، لهذا ما كان يردُّ طلباً لِمَنْ يقصده، فكم من الرُّعيان قصدوه كي يتّخذوا من حوشنا الكبير خاناً لأغنام الرُّعيان الَّذين ما كان لهم ولأغنامهم مأوى، فقد كان الرُّعيان مع أغنامهم ينتقلون إلى ديريك وقراها بحثاً عن الرَّعي، ونظراً لأنّه ما كان بإمكان أي خان أن يستوعب هكذا "كريّة" غنم، قطيع كبير من الغنم، لهذا كانوا يقصدون البيوت الَّتى لها أحواش كبيرة مثل حوشنا، فكم من مرة اِستيقظت من نومي على صوت الأغنام، وعندما كنتُ أفتح باب المنزل، كنت أرى قطيعاً كبيراً من الغنم في الحوش، ويدخل جَدْيٌ صغير إلى المنزل والمطبخ ثمَّ يركض في أنحاء البيت فأمسكه وألعب معه، وكنت أندهش لهذا الطَّرش الكبير من الأغنام.

كان الرُّعيان ينامون طوال اللَّيل في الحوش بجانب الحائط، يستعيرون منَّا بعض البساط والبطانيّات القديمة، وكانوا ينامون في إيوان صغير في أيّام الشِّتاء، لأنَّهم ما كانوا يتحمَّلون برودة الشِّتاء، وكلّ هذه الخدمات كان يقدِّمها والدي للرعيان من منطلق، "خطيّة" ما لهم أحد في ديريك.

كنَّا نتقيّد تماماً، حيث أنّنا كنَّا محاصرين من الأغنام، حتّى أنَّنا ما كنّا قادرين على الاِنتقال من غرفة إلى أخرى، إلّا بصعوبة لأنَّ الأغنام كانت تدخل في الغرف الَّتي نفتحها سواء الَّتي نسكن فيها أو الّتي ندخل إليها، ولكنّي أوجدت حلّاً لهذا الأمر مثلما أوجدت حلاً لتأجير حوشنا لحفلات الزَّفاف وأنا في الرَّابعة عشرة من عمري تقريباً!

قلت لوالدي، بابا أنت إنسان فلاح وقلبك طيِّب وتحبُّ أن تساعد النَّاس الفقراء، ولم أجدك تردُّ أيَّ إنسان قصَدَك منذ أنْ وعيتُ على وجه الدُّنيا وحتّى الآن، وهذا شيء رائع فيك وبطيبة قلبك، ولكن المشكلة أنّنا نتعب ونتضايق من الأغنام، ومن طلبات

الرُّعيان، لهذا برأيي أن نعرض عليهم أن يدفعوا لنا مقابل كل ليلة يبيتون فيها مع أغنامهم في الحوش ما بين 5 إلى 10 ليرات سوريّة، وهذا السّعر يتوقّف على عدد الأغنام، فأعجبته الفكرة، وقال أنت ناقش معهم الموضوع، لأنّني أشعر بالإحراج أن أطلب منهم أجرة الحوش، فخوَّلني أن أتحدّث مع الرُّعيان بخصوص تأجير الحوش كلّ ليلة مقابل مبلغ من المال في حال قدومهم في المرّات القادمة!

ما كان الرُّعيان يمكثون طويلاً، فقط ليلة أو ليلتين، لأنّهم يرحلون من قرية إلى أخرى بحثاً عن الرَّعي، وفعلاً جاءنا راعي معه طرشاً كبيراً من الأغنام خلال بداية الرَّبيع، وكنت قد جئت لتوِّي إلى البيت، وقبل أن يدخِّل الأغنام إلى الحوش أوقفته وقلت له العفو، دقيقة، ماذا تريد؟ فقال أريد أن أبيت في حوشكم مع أغنامي. طيِّب، أسألك لو تأخذ هذه الأغنام إلى أيِّ خان من خانات البلدة، كم ممكن أن تستأجر لهم الخان وأنت معهم؟!

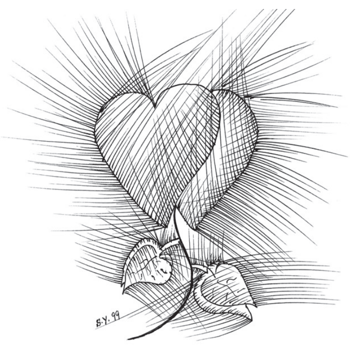
أجابني، صدّق مو أقل من 15 ليرة.

ونحن نؤجّر الحوش لك ولأغنامك كلّ ليلة بعشرة ليرات سوريّة فقط.

تنحنح وقال ولكن والدك ما كان يأخذ منَّا ومن بقيّة الرُّعيان أيّة ليرة سوريّة، فقلت له والدي طيّب القلب ويريد أن يساعدكم ومايزال يريد أن يساعدكم ولكنّه هو نفسه بحاجة للمساعدة، فنحن نستطيع أن نحسم لكم خمس ليرات أقل من الخان الّذي ممكن أن تستأجرونه، إضافة إلى أنَّ نقل هذه الأغنام إلى السُّوق مشكلة كبيرة، فممكن أن تضيع إحدى أغنامك في الطَّريق أو تدخل في حوش ما وتضيع! وحوشنا قريب من الطَّبيعة وفي نهاية البلدة، ويناسبك أكثر من الخان وأنت الرّبحان في النّهاية!

وافق على تأجير الحوش بعشرة ليرات سوريّة، وحاول أن يدخل الأغنام إلى الحوش، لكنِّي طلبت منه المبلغ المتّفق عليه قبل أن يدخلهم لضمان حقّنا، فأعطاني 10 ليرات سوريّة. فرَحْتُ بنجاح فكرتي، وحقَّقتُ مخطَّطي، وأستطيع أن أشتري بهذا المبلغ، الكثير من حاجاتي المدرسيّة وبعض الحاجات المنزليّة أيضاً. وهكذا اِستطعت أن أحلَّ مشكلة ضيافة الأغنام والرَّعيان بطريقة مريحة ومناسبة للطرفين!

خبَّر والدي أخوتي الكبار عندما عادوا من العمـل، فـأعجبوا بأسـلوبي وطريقـة تفكـيري بتأجير الحوش للرعيان، وفرحوا بنجاحي في تطبيق الفكرة، لأنّهم كانوا يشتغلون طـوال اليـوم في صبِّ وقطع البلوك والبناء والرَّمل بخمس ليرات سوريّة لكلِّ واحد مـنهم في اليـوم الواحـد، وأحياناً بأربع ليرات، ففي هذه الحالة أصبح لنا مـورداً إضـافيّاً، وكـأنّ أحـدهم إشـتغل يـومين متواصلين!



18

نزوح جدّتي وعمّي وأمّي ووالدي من آزخ إلى ديريك

نزحت جَّدتي من آزخ معَ عمّي ووالدتي وعمَّتي، وجدّي توفي في آزخ في مقتبل العمر، فتكفَّل والدي بتربية أخيه وأخواته وهو طفل. ونتيجة البطش العثماني التُّركي، فرَّ عمِّي وعمَّتي وزوجها عمو سيسو وأمّي وجدَّتي سلطانة من آزخ وكوفخ، قاصدين ديريك في بداية الثَّلاثينات من القرن الماضي، تاركين خلفهم كلّ ما يملكون، هرباً من بطش وغدر سيف عثمان، بحثاً عن الأمان، فوجدوا ضالّتهم خلف الحدود، فكانت ديريك آزخ الجّديدة، ملاذهم الأخير.

كان والدي في حينها يؤدّي خدمة العلم في الجيش التُّركي، فقد خدم سنة وشهرين، وقبل استكمال الخدمة بأربعة شهور، أخذ إجازة قصيرة من الخدمة، وقرَّر أن يشكِّلَ فراراً من الجيش التُّركي أو بصورة أدق من الجيش "العصملِّي"، وعبَرَ الحدود السُّوريّة قاصداً ديريك حيث جدَّتي وأمِّي وعمّي وعمَّتي في اِنتظاره.

بدأ حياته من جديد، تاركاً آزخ وكوفخ وبابقَّة وكلَّ القرى المتاخمة لآزخ ذكرى في قلبه وروحه. ترك كرومه وأراضيه وبيته و"البيرمي": بركة الماء المعروفة، وكلّ ذكرياته وماضيه خلف ظهره، مرجعاً لقصصه وحكاياته ودموعه، فأصبح تاريخ مئات السِّنين من حياة أجداده وممتلكاته وأديرته وكنائسه وتاريخ شعبه، مجرّد ذكرى يسردها والدي والدُّموع تطفح من مآقيه!

اشترى والدي مقسم أرض مقابل كنيسة العذراء الَّتي ظهر فيها الميرون، ثمَّ بنى بالتَّعاون مع عمِّي يوسف بيته من الحجر والطِّين خلال فترة قصيرة، وعاشت أسرتنا فيه فترةً من الزَّمن.

كان والدي صامو شلو من الفلّاحين الأوائل الَّذين حطَّ بهم الرَّحيل في ديريك وحصلوا على أراضي زراعيّة كوضع يد، أراضي رزقو البلديّة آذاك، الّذي كان يمتلك

ثلثَي هذه الأراضي الَّتي كان الفلَّاحون يستثمرونها وقبل أن يتوفَّ الملاك سلَّم حصَّته كاملةً إلى أوقاف كنيسة السُّريان الأرثوذكس في ديريك، وحتَّى تاريخ كتابة هذه السُّطور تعود ملكيَة ثلثَي أراضي الفلاحين إلى الكنيسة، وثلثها الباقي كان ومايزال عائداً لآل عبدالغني، ومن الفلّاحين الَّذين استثمروا هذه الأراضي ساعور كنيسة مريم العذراء المعروف داؤود متُّو، وشمعون عيسكو، ولحدو عبدي، وملكي دلي وحنكو، ويعقوب الرَّديف، وبولوص العميريني، وبرهو نيسانا، وعيسيي ميرمي، ومقبولة إبلحد أفريم، وبيت فرحو وأقربائهم بيت الأخوين أفريم وبهنان حنَّا، وبيت بولو وأولاده لحدو وأفريم وشمعون وكوركيس ومراد بولو، وبيت ببو، وبيت باعوث، وبيت الكطّاش ووالدي صامو شلو وعمّي يوسف شلو، وبيت كامل وظهر بعده ولده يوسف كامل، وبيت حسين عبدو، وبيت حاجي حيدر، وبيت نجم أبو خورشيد، وبيت مرادي شمونيي، وبيت موسيي ايرسي وبعض الفلّاحين الآخرين.

باع والدي بيتنا العتيق في منتصف الخمسينات لبيت حاجي عزير، واِشترى مقسم أرض في ديريك العتيقة بحدود 700م^2 وكان والدي معمارجيَّاً، فعمّر ثلاثة غرفة ومطبخ وكوخين كبيرين للبقرات والبغال، وكوخاً كبيراً خاصَّاً بالتّبن، وكوخاً صغيراً خاصَّاً لعدّة الفلاحة كالنِّير والبرمولكات والجّرجر والملاحيب والمكازين: المناجل وكلّ ما يتعلّق بالفلاحة والمنزل من حاجيات!

كما اِشترى عمّي يوسف شلو قطعة أرض كبيرة أيضاً على نفس شارعنا من الجهة الجّنوبيّة وعمَّرها، وغدا عمّي معارجيَّاً بارزاً في ديريك وقراها، حيث تعلّم بمهارة عالية بناء بيوت الكربيج، والحجر والبلوك والقرميد، وكان مشهوراً ببناء تريتوارات ديريك مع المعمارجي شمعون بولو ولحدو هيلانة وَحَدِي أبو سامي.

أصبح عمِّي معمارجيّاً شهيراً في ديريك وخارجها، لهذا كان يرده طلبات من خارج ديريك، فقد عمّر الكثير من تريتوارات قبور البيض في بداية السّبعينيات من القرن الماضي، كمّا عمّر محلجة القطن في الحسكة، وعشرات البيوت في قرى ديريك وبنى مئات البيوت في ديريك! وعمَّر قسماً من مدارس ديريك وتجنيد ديريك بالذَّات هو عمّره!

إضافة إلى كلَّ هذا، كان عمّي نحّات حجر من العيار الثَّقيل، وأتذكَّر كيف كان يكسر الأحجار الكبيرة، "كيفين الجول"، صخور كبيرة، يشقُّها شقَّاً وينحتها أحجار صغيرة للبناء، وأحجار بحدود متر للقبّالات، ويصمِّم "شيبين" كبيرة بحدود متر × متر ونصف إلى مترين، بعرض 25 ــ 30 سم تقريباً، خاصة كجسر فوق الشّبابيك والأبواب ومداخل البيوت، وإنَّ أفضل وأجمل ما عمَّره عمِّي برأيي هو أحد معالم ديريك وهو واجهة المركز الثّقافي من جهة الشَّرق! هذه الحجارة الجُولاني النَّافرة، ولهذه الواجهة قصّة من أحلى القصص!

اِحتار المهندس المشرف على بناء المركز الثّقافي في ديريك في كيفيّة بناء واجهة المركز الثّقافي، فكم من المحاولات الَّتي فكَّر عبرها لبناء هذه الواجهة لكنّها باءت بالفشل، فنصحه بعض المهندسين أن يلجأ إلى المعمارجيِّين ذوي الخبرة العمليّة، فوقع اِختياره على عمِّي، فقصد منزله وطرح عليه فكرة بناء واجهة المركز الشَّرقيّة من الحجر الجُولاني الطَّبيعي، بحيث أن يكون الجّزء المرئي من الحجر الطَّبيعي دون نحته!

حالما شرح فكرته لعمِّي، ضحك عمِّي قائلاً، ألا يوجد بين المهندسين من يجدَ حلّاً لهذه المشكلة، فجئت إليَّ، تستشيرني يا حضرة المهندس؟!

لا، لم أجدْ مَن يحلّ لي هذه المشكلة، أنا المهندس المشرف على المشروع، وكلّ المهندسين وكلّ العاملين معي، عجزنا عن إيجاد الحل.

أجابه عمِّي بكلِّ ثقة، الحلّ والتَّنفيذ هو عندي يا أستاذ!

اِندهش المهندس، عندما أجابه عمّي بثقة كبيرة ومن دون أيِّ تردُّد، ثمَّ بدأ يشرح له كيف سيتمُّ نحْت الحجر، وكيفيّة بنائها حجرة حجرة، بحيث أن يبقى الجّزء المرئي الخارجي من الجِّدار نافراً بحدود 15 سم.

سأل المهندس، ألَا يتهدَّم الجّدار عندما يكون 15 سم نافراً، كديكور؟

ضحك عمِّي مرَّة أخرى قائلاً، لو أنتَ تبنيه وتصمِّمه ربّما يتهدَّم، أما أنا لو أصمِّمه وأنحت حجره وأبنيه فلم يتهدّمْ إلّا بالمنجنيقات!

ثمَّ بدأ يشرح عمِّي فكرته في كيفية تنفيذ بناء واجهة المركز البديعة، قائلاً:

أولا نحتاج إلى حجرة جـولاني، طويلـة بحـدود 70- 80 سـم، قطرهـا بحـدود 30 سـم، سأترك رأس الحجرة المدبّب أو على شكل بيضوي بوضـعه الطَّبيعـي بحـدود 15 سـم، وذيـل الحجرة سأنحته من الجِّهات الأربعة، كل ضلع بحدود 20- 25 سم، بحسب سـماكة الحجـرة، بحيث أن يكون ذيل الحجـرة المخصَّـصة للبنـاء عـلى الأقـل ثلاثـة أضـعاف الجّـزء النّـافر مـن الحجرة! أي بحدود 50 سم، والباقي سيكون نافراً، لأنَّ الحجرة الَّتي يتمُّ بناءها بطول 50 سـم ممكن أن تحمل القسم النّافر منها بسهولة، خاصَّة إذا كانت مبنيّة بالإسمنت وبـشكل دقيـق ومتشابك، وهكذا وقَّع المهندس مع عمِّي عقداً، وفعلاً قدّموا لعمِّـي مواصـفات الحجـر الَّتـي تناسبه وبدأ أولاً بعمليّة نحت الأحجار المناسبة حجرة حجرة، وبدأ يبنيها وهي بـين يديـه أي يأخذ قياسات الجّزء النّافر والجّزء المنحوت على أرض الواقع، بحيث أن تكـون مناسـبة وعـلى قياسات متقاربة على أن يكون الجدار المبني بحدود 50 سم والنَّافر بحدود 15 سم، ونادراً ما كانت تنكسر الحجرة معه أثناء نحتها، والحجرة الَّتي كانت تنكسر من خاصرتهـا كـان يحوّلهـا إلى شحف صغير، كي يحشيها بين فراغات الجـدار مـع الإسـمنت! وبـدأ ينحـت الحجـر إلى أن اِستكمل المطلوب، ثمَّ بدأ بالبنـاء يوميّاً بحـدود مـتر فقـط، ثـمَّ يتركـه يومـاً كـاملاً كي يجـفَّ الإسمنت ويسقيه حتَّى غاية اليوم الثَّالث، وخلال فترة شهر تقريباً بنى كلّ تلك الواجهة الّتـي هي بارتفاع 15 متر تقريباً!

وبعد أن اِستكمل عمِّي بناء واجهـة المركـز، جـاء الكثـير مـن المهندسـين مـع المهنـدس المشرف، وقال لعمِّي أمام الجميع أنا أعترف أنَّ لـديك خـبرة أكـثر مـن الكثـير مـن المهندسـين المعماريين، لأنَّني أنا المهندس المشرف على هذا الجدار وعلى كلِّ المركـز الثَّقـافي، كنـت عـاجزاً عن إيجاد الحلّ، بينما أنتَ أوجدت الحلّ ونفَّذته عمليّاً وبنجاحٍ كبير، فإليك أقدِّم ثمرة جهدك كما اِتَّفقنا مع مكافأة أخرى لأنّك صاحب الفكرة في كيفيّة بناء هذا الجدار!

ومن باب الفضول سألَ المهندسُ عمِّي، ما هي شهاداتك يا عمّي؟

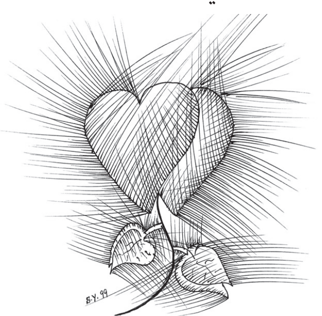
أجابـه، يـا اِبنـي شـهاداتي هـي خـبراتي في الحيـاة، خـبراتي في العـمارة، حيـث تعلَّمـت اللُّغـة العربيّـة شـفهيّاً مـن خـلال اختلاطـي في الحيـاة وتعلَّمتهـا قـراءةً وكتابـةً مـن خـلال أولادي عنـدما التحقـوا بالمـدارس، وتعلَّمـت اللُّغـة الكرديّـة مـن خـلال صـداقتي وتواصـل

أسرتنا مع الشّعب الكردي، وتعلَّمت السّريانيّة بلهجتها الآشوريّة من الآشوريين عندما عمَّرتُ بيوتهم في ريف الحسكة، وتعلَّمْت الإنكليزية من خلال خدمتي في الجيش الإنكليزي..!

وتعلّمت العمارة من أخي لأنّه معمارجي، ثمَّ تابعت المسير، لأنَّ عضلاتي تساعدني على نحت الحجر والبناء وهذه المهنة تتطلّب القوّة البدنيّة والخبرة المهنيّة والدّقة والصَّبر، فهي مهنتي ومصدر رزقي لإعالة عائلتي.

برأيي كان من المفروض بحسب الجهد الَّذي قدّمه عمِّي في مراحل عمره في ديريك بشكل خاص وقراها وخارج ديريك، أن يكون من أغنى أغنياء ديريك، ولكنّه هاجر في شيخوخته إلى ألمانيا بعد أن باع بيته وبصعوبة تمكّن من الوصول إلى ألمانيا، ولولا جهود ابنه شكري لما تمكّن الوصول إلى هناك!

لم ألتقِ معَ عمّي منذ عام 1993، حيث التقيته في حينها، خلال زيارتي الأولى والأخيرة للوطن الأم، وقد كنتُ قد قرَّرتُ عبورَ البحار في نهاية 1989، تاركاً خلفي الأهل والأحبّة الأصدقاء والوطن ومسقط الرّأس وذكريات ثلث قرن من الزّمن، بحثاً عن أبجدياتٍ جديدة للإبداع، فهل وجدتُ هذه الأبجديات الَّتي كنتُ أبحثُ عنها منذ أمدٍ بعيد؟!



19

جدّتي سلطانة تقتل بيدها عقربة سوداء فوق قماط أخي الرَّضيع

عمَّر عمِّي يوسف غرفة صغيرة لجدّتي سلطانة في الجّهة الشِّماليّة من بيت عيشو الواقع في زاوية الشَّارع المؤدّي إلى كنيسة مريم العذراء، بعد أن عاش هو ووالدي في بيتَين مستقلَّين.

أتذكَّر "بيري" سلطانة جيّداً، قامتها طويلة، بشوشة وحنونة، كانت ترتدي "بوشيّة" على رأسها، ولباسها أسود حالك وطويل، وقد حكى لي والدي عنها قصصاً طريفة حول شجاعتها وجرأتها ومواقفها. وأكثر ما لفت انتباهي في شخصيّتها هو موقفها الرائع من أمِّي، فبعد وفاة جدِّي، تزوّج والدي وهو في العشرينات من عمره من أمّي وهي طفلة، كانت بالكاد قد دخلت الحادية أو الثَّانية عشرة من عمرها، وذلك كي تساعد جدّتي في الجلي والغسيل والطّعام ومساعدة جدَّتي في بعض الأعمال المنزليّة وجمع الملّوات أيّام الحصاد، ونظراً لصغر سنّها فقد اِتّفقتْ جدَّتي مع والدي أن يعقد قرانه على أمِّي، شريطة أن لا يدخل عليها إلّا بعد أن تنضج، وفعلاً نامت أمّي بعد زفافها بين أحضانِ جدَّتي، ومنعت جدَّتي والدي من الإختلاء بها ليلاً أو نهاراً، ولم أسمع والدي مرّة واحدة نادى جدّتي أي أمَّه ماما، بل كان يناديها باسمها حاف سلطانة، وعندما شببتُ عن الطَّوق وناقشته هذا الأمر، وسألته ألهذا كنتَ تناديها باسمها سلطانة ولم تقُل لها "يودي" أي ماما؟!

كان يضحك ويقول لي يا ابني جدّتك زوَّجتني بعد وفاة والدي، لكنّها منعتني لمدّة سنوات من الاِختلاء بوالدتك الَّتي كانت شرعاً زوجتي!

ألهذا كنتَ تناديها باسمها ولم تقُلْ لها ماما أو يودي كما ينادي الفلّاحون الهلآزخ أمَّهاتهم؟

لا أعلم بالضَّبط، لماذا كنتُ أناديها سلطانة، لربّما كنتُ في موقع الأب في الأسرة بعد وفاة أبي، فقد أخذت دور ربّ الأسرة، فجاءت قضيّة زواجي المبكّر، وكل هذا ربّما قادني أن أناديها سلطانة حاف!

ماذا كنتَ تقول لأمِّك عندما كانت تمنعك من الإختلاء بأمِّي وهي طفلة!؟

كنتُ أقول لها، طالما لا تسمحين لي بالإختلاء بزوجتي فلماذا زوّجتيني إيّاها؟

كانت تضحك وتقول زوَّجتك كي تصبح رجَّال البيت بعد وفاة والدك، وكي تساعدني زوجتك في أعمال المنزل والحصاد والكروم وإلى أن تصل لمرحلة الزَّواج عندها تستطيع الإختلاء بها كزوج وزوجة!

ضحك والدي وقال فعلاً اِستطاعت جدَّتك أن تمنعني من الدُّخول على والدتك، ويوماً بعد يوم اعتدت عليها كإحدى أفراد المنزل وكأنّها ليست زوجتي وتركتها في حال سبيلها تنام مع جدّتك إلى أن جاء يوم وجاءت إليَّ جدّتك والاِبتسامة مرسومة على محيّاها، فقلتُ في نفسي اللـه يجعله خير يارب.

قال لها والدي، هناك شيء تحت لسانكِ، لهذا أراك بشوشة وكأنّك بصدد أن تبوحي لي سرّاً.

ضحكت جدَّتي وقالت لوالدي، أيوه عندي خبر وبشرى سارَّة لك.

ما هذه البشرى يا سلطانة؟ تساءلَ والدي.

تستطيع منذ الآن أن تختلي بزوجتك، فهي بعد اليوم ستنام بين أحضانك!

فرح والدي لهذه البشرى، مع أنّه أصبح معتاداً على الحالة الَّتي كان فيها، وهكذا دعوا بعض الأهل والأقارب وأقاموا حفل زفاف حقيقي، وكأنَّ حفل الزَّفاف الأوَّل كان زفافاً مع وقف التّنفيذ، وها قد حان الآن وقت التَّنفيذ!

بعد زواجه، زرقه اللـه عدّة بناتٍ في البداية، ثمَّ ولد أخي سليمان، وأدهشنى والدي وهو يحكي لنا موقفاً من مواقف جدَّتي الموغل في الجرأة والشَّجاعة، حيث كان أخي الكبير طفلاً رضيعاً في شهوره الأولى وهو في القماط، في إحدى زوايا بيتنا القديم الَّذي بعناه لبيت حاجي عزير والواقع مقابل كنيسة مريم العذراء تماماً. وقد كانت "بيري"

سلطانة الوحيدة في المنزل وكانت آنذاك في حدود السَّبعينات من عمرها. والدتي كانت تخبز خبز التّنور، والجميع خارج المنزل، إلَّا "بيري" وسليمان في قماطه، وإذ ببيري سلطانة تشاهد عقربة سوداء كبيرة تسير على قماط سليمان وأصبحت قريبة من وجهه، فهجمت على العقربة بيدها وأبعدتها ثمَّ سحقتها بيدها بلمح البصر، فلم تتمكَّن العقربة أن تلدغ "بيري" من السُّرعة الَّتي انقضَّتْ عليها!

وفيما كان يحكي والدي هذه القصّة لي، كنت أسأله، يعني لولا "بيري" سلطانة، كان ممكن العقربة تلدغ سليمان؟

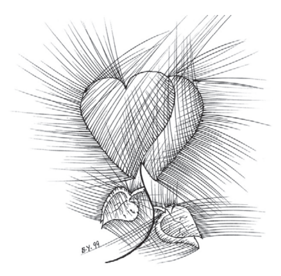
ممكن جدّاً، واللـه ستر كانت جدَّتكَ في البيت وقتلتها بيدها!

هكذا كانوا جدَّات وأمَّهات ذلك الزّمان، يهجمون على العقارب ويسحقونهم بأيديهم عندما يقتربون من أولادهم وأحفادهم ولا يهابون الموت!

أتذكُّرها جيّداً كأنّها ماثلة أمامي الآن، بهيبتها وقامتها الشَّامخة، كم كانت تحبُّني، والغريب بالأمر أنَّني لا أتذكَّر نهائيّاً كيفيّة وفاتها، مع أنّني كنتُ واعياً بحدود الرّابعة من العمر!

أغلب الظَّن أنَّ الأهل لم يخبروني أثناء وفاتها، لأنّها كانت في بيت مستقلّ، وربّما لم يكُنْ دارجاً في ذلك الحين زجّ الأطفال في مثل هذه المواقف الصّعبة، وبعد فترة تبيَّن لي أنّها اختفت، ثمَّ بلَّغوني أنّها توفيت! بكيتُ عليها، وحزَّ في نفسي أن تغيب عن ناظري ولا أراها إلى الأبد!

آنذاك عرفتُ ولأوّل مرّة أنَّ الإنسان يكبر ويشيخ ويموت، عرفت هذا من خلال وفاة جدَّتي سلطانة!



20

سرقة بقراتنا الثّلاثة وبغلتنا البنّيّة،

وعدم استسلام بغلتنا البيضاء للصوص

بعـد مقتـل كلبنـا "دف رش"، تعرَّضـنا للـسرقة في ليلـة مـن ليـالي الـسَّبت، في بدايـة السَّبعينيّات من القرن الماضي، أتذكَّر كيـفَ اِسـتيقظتْ أمِّـي، وهـي أوَّل مَـن اكتـشفتْ سرقـة ثلاث بقرات وبغلة من بغالنا الَّتي كانت مورداً هامَّاً من مواردِ رزقنا في ذلك الحين.

لم تستسلم بغلتنا البيضاء لأنَّها شعرت أنَّ هؤلاء الَّذين اقتحمـوا عرينهـا هـم لـصوص، فقاومتْ ولم تستسلم لهـم، بـل ظلَّـتْ تقـاوم حتَّـى تركوهـا في كوخهـا والبـاب مفتـوح عـلى مـصراعيه، وظلَّـت تـرفس في حـائط الكـوخ والبـاب الَّـذي كـان متـاخماً لغرفـة نومنـا إلى أن استيقظتْ أمِّي.

كيف لم نستيقظ أثناء عمليّة السَّطو والفاصل بين غرفة نومنا وكوخها كان ممرَّاً بعرض متر ونصف لا أكثر؟!

نهضتْ والدتي على صوت ركلات أقدام بغلتنا البيضاء، لأنَّ والدي كـان قـد انتهـى مـن الحراثة كلِّيَّاً بعد جهود شهورٍ في حراثةِ أراضينا، فغطَّ في نومٍ عميق، مـع أنّـه في العـادة يقـوم بتقديم علف الحيوانات في مستهلِّ السّهرة، ثمَّ يقدِّم لهم ثانية قليلاً من العلف بعد منتصف اللَّيل، ولكنّه اكتفى في تلك اللَّيلة أن يقدِّم لهم كمِّية جيّدة من العلف في بداية الـسّهرة كي لا يقطع نومه، وينام نوماً عميقاً بعد أن اِنتهى من حراثة الأراضي كلّها!

تتراءى أمامي لحظات ومشاهد لا تُنسى ممَّا حصل في تلـك اللَّيلـة المـشؤومة، كنـتُ في حينها أدرس في بداية الحلقة الإعداديّة، أتذكَّر أنّني شعرتُ بأنّ اللّيل ثقيل جدَّاً عـليَّ، وهنـاك نوع من الهيبة أو الخوف راودني، كأنِّي أحسَسْتُ بصوت أقـدام خفيفـة في الممـرِّ الفاصـل بـين غرفة النَّوم والكوخ الَّذي فيه بغلتينا.

لا أعلم لماذا لم أجد دافعاً للاِستطلاع وتفقّد سبب هذا الثُّقل الَّذي أحسَسْته؟

كنتُ سهراناً على اللَّمبة، مصباح الكَاز، نقلتها من مكانها الطَّبيعي نحو أسفل الحائط، باِرتفاع متر تقريباً عن الأرض كي تضيء فقط على المساحة الَّتي تموضعتُ فيها على بطني، وأسندتُ مخدّة تحت صدري وغطّيت نفسي ببطانيّة، كتبي ودفاتري حولي، أكتب وأراجع وظيفة بعد أخرى، دائماً كنت آخر مَن ينام، بسبب متابعة تحضير واجباتي المدرسيّة.

وفيما كنتُ أقرأ وأحضِّرُ دروسي وبحدود العاشرة ليلاً، اِنتابني أكثر من مرّة وكأنَّ هناك شبح ما حولي أو في المنزل. أهلي نائمون صفّاً واحداً، أسمع شخير بعضهم! استيقظ أحد إخوتي يريد قليلاً من الماء، فقدَّمتُ له طاسة ماء من جرّتنا الكبيرة، ثمَّ تابعت قراءة دروسي، ما كان يشخر والدي، ينام على ظهره، نومه عميق وتنفسُّه هادئ! أكثر من مرّة راودني أن أخرج لتفقُّد الحوش وأبواب الأكواخ للتأكّد من سلامتها، ولم أجد حافزاً للقيام بهذا الأمر، وخطر على بالي أن أوقظ والدي أو أحد إخوتي وأخبره بما أشعر به، ولكنّي لم أوقظ والدي لأنَّه كان مرهقاً وقال لنا لا توقظوني لأنّني قدَّمت علفاً للدواب يكفيهم حتَّى الصَّباح، وهكذا لم أجد ما يستوجب إيقاظه، ولم أرِدْ إزعاج أخي وإيقاظه من النّوم لأنَّه هو الآخر كان مرهقاً.

فيما بعد سمعت بعض النّسوة يقولون أنّه في هكذا حالات سطو، يجلب اللُّصوص معهم تراب الموتى ويرشُّونه أمام البيت فيصبح نوم أهل البيت ثقيلاً، همستُ في سرِّي هل من المعقول أن يكون اللُّصوص في حينها قد رشُّوا أمام بيتنا تراب الموتى، لهذا شعرت بكلِّ ذلك الشُّعور الثَّقيل والهيبة؟ هناك ألغاز وحالات ومشاعر تنتابنا في الحياة ولا نفهم أسبابها الحقيقيّة ولا نجد تفسيراً منطقيَّاً لها.

سهرتُ حتَّى حوالي الحادية عشرة ليلاً، عادةً أسهر حتَّى حوالي منتصف اللّيل، أو أكثر بقليل، وبحسب واجباتي المدرسيّة، لكنّي شعرتُ أنَّ جسمي ثقيل وحالتي النَّفسية كانت غير طبيعيّة، ما كنت مثل لياقتي المعهودة!

خفَّفتُ من ضوء المصباح، ثمَّ حاولت أن أنام، شعرت بقلق، تقلَّبت في فراشي ثـمَّ نمـتُ وكأنّي لذتُ فراراً ممّا كان يراودني، وفجأةً وفيما أنا غارقٌ في متاهاتِ الكوابيس، سمعتُ صوتَ أمِّي تقول بصوتٍ عالٍ:

هاوارا على بيتي دوابنا انسرقوا!، مصيبة حلَّت بنا، دوابنا سُرقوا!

استيقظنا على صوت أمِّي بحدود الواحدة ليلاً، وخلال دقـائق اسـتنفرَ الحـيُّ بكاملـه! بلّغ إخوتي أصدقاءهم أولاد رزقو خلف، فنهض فاروق وإبلحد وسمير ثمَّ استيقظ بيت أفـريم أبو يعقوب وأخيه بهنان، وبيت بهنان جوكي وبيـت زومـي وبيـت عمِّـي وبيـت خـالي وبيـت شمعون عيسكو، وبيت ببّو، وبيت لحدو عبدي، وبيت شمعون بولو ومراد بولو، كما استيقظ تلقائيَّاً أغلب بيوت الحي، بيت خفرو، وبيت أمينة وبيت طاهرو وبيت فتَّاح الحـارس وبيـت ليلو وبيت سلوي خوخي، وبيت عيشو، استنفار تام!

تضامن معنا الكثير الكثير من أبنـاءِ الحـيِّ، مـشّطنا أغلـب بـراري القـرى الَّتـي تحـيط بديريك من الجهة الشِّماليّة والغربيّة، لكنّنا لم نهتدِ نحو الجهة الَّتي فرّوا منها، حيث توجّهـوا اللُّصوص نحو الجِّهة الشِّماليّة الشّرقيّة، قاصدين بازندان، وباتوا ليلةً هناك بحسب المعلومات الَّتي وردتنا من القرية ذاتها!

طلب منّي والدي أن أذهب إلى بيت المشكوك في أمره وأنا في حدود الرَّابعة عشرة من عمري في دكنةِ ذلك اللَّيـل البهـيم، ولم يفكِّـر والـدي ولا أي واحـد مـن الأسرة، فـيما إذا كـان المشكوك فيه، الآتـاخ في المنـزل بـصحبة اللُّـصوص والـدَّواب، مـاذا ممكـن أن يحـدث لي وأنـا أكتشف أمر هؤلاء في أنصاص اللَّيل وحدي؟!

ركضتُ بدون أيِّ تردُّد من البيت حتّى غايـة بيـتهم، وجـدت المنـزل مـضيئاً! لم أشـعر بالخوف من شدَّةِ الخوف، عبرت حوشهم فنبح كلبهم عليَّ، لكنَّ خبرتي في التّعامل مع الكـلاب الأليفة جعلتني أن أسير بدون خوف وكأنّني أحـد أفـراد المنـزل، فتوقّـف الكلـب عـن النِّبـاح عندما وجدني أسير بهدوء وبثقة نحو المنزل، فاعتبرني بغريزته وكأنّي من أهل البيت!

قرعت الباب، فردّت زوجته عليّ، تفضَّل، فتحت الباب، فلم أجده مغلقاً، سلّمتُ على زوجة غريمنا قائلاً، العفو خالة جئتكم في هذا الوقت المتأخِّر من اللَّيل لأنّني أريد اللِّقاء بالعم بهنان لأمرٍ هام، فقالت لي عمّك ليس بالبيت، خير ابني، ماذا تريد منه؟!

اِستدركتُ الموقف ببداهةٍ سريعة، لأنَّني أصلاً لم أخطِّط لهذا الموقف الَّذي أنا فيه، وقلت لها بغلتنا مريضة جدَّاً يا خالة والعم بهنان لديه خبرة في معالجة أمراض الدَّواب. فسألتني ابن مَن أنا؟ فذهبت بعيداً في خيالي، قائلاً لها أنا ابن داؤود متُّو ونحتاج مساعدته الآن، لعلَّه يستطيع معالجة بغلتنا ممّا تعاني من أوجاع!

فقالت صدّق عمّك ما هو بالبيت، وقد خرج منذ بداية اللَّيل ولم يعُدْ حتّى الآن، ولا أعلم أين وجّه وجهته، وحالما يعود سأبلّغه على أيَّةِ حال!

عدْتُ مسرعاً لأبلّغ الأهل على أنَّ غريمنا المشكوك في أمره غير موجود في المنزل وخرج من البيت على حدِّ قول زوجته منذ بداية اللَّيل ومايزال خارج المنزل! ثمَّ قال لي والدي بعد قليل اِذهب مرَّة أخرى للتأكّد من وجوده، فقلت له لا يبدو يا بابا أنّه في المنزل، ولا أظن أنّه سيعود، ولا أظن أنّه الآن في البلدة لأنّه سيكون خارج المدينة مع المجموعة الّتي معه، وقد كان تحليلي في مكانه تماماً، لأنّنا وجدناه في صبيحة اليوم التَّالي في السُّوق، بجانب دكان حاجي كولّكه وسعيد فقّة، في وسط السُّوق. وأثناء استجوابه نكر كلّياً أن يكون طرفاً في سرقةِ دوابنا، وكان مرتبكاً وقلقاً وغير طبيعي، ودقَّقت في حذائه، تبيَّن لي أنّه يأتي من براري ديريك لأنّه كان فيه طيناً أحمر وكأنّه آتٍ من أعماقِ الجولِ والبراري!

سألناه عن سبب غيابه ليلة أمس من المنزل فتذرَّع كلّ مرة بحجّة جديدة! بعد استجوابات سريعة، تركناه في حال سبيله بعد أن أكّدنا له أنَّ الدَّواب ستعود لنا عاجلاً أم آجلاً.

حالما تركناه، أسرعَ في خطاه، نظرتُ إليه وتراءت أمامي زياراته لنا وقصصه الطَّريفة الَّتي كان يحكيها لنا، كم كان بارعاً في سرد القصص والحكايات، كنتُ أحبُّ حكاياته جدَّاً، لا أعلم لماذا اِنتابني نوع من الشَّفقة والتَّعاطف لما هو عليه، التفتَ نحونا

بعد أنْ قطعَ بضع خطوات، وهو في غاية القلق والاِرتباك. هزَزْتُ رأسي متسائلاً، لماذا حصل كلّ هذا؟!

تابعنا تحرِّياتنا على أكثر من جهة. وصلنا معلومات لاحقاً أنّه كان بصدد إعادة البقرات وبغلتنا من دون الاِعتراف بهذا، كي يتفادى من نتائج لا تُحمد عقباها، ولكن اللُّصوص الآخرين المتعاملين معه كانوا ضدّه في موضوع إعادتهم، وقد تبيَّن لنا أنَّ هناك ثلاثة لصوص مشتركين معه في عملية السَّطو، وكان هو على ما يبدو مجرّد "الآتاخ" الَّذي قادهم بسهولة إلى أكواخ الدَّواب، فغياب كلبنا "دف رشّ"، سهّل كثيراً للصوص في عمليّة السَّرقة، إضافة لعدم وجود باب حوش يحمي الحوش من عبور اللُّصوص، وما كنّا نغلق أصلاً أبواب كوخ البقرات ولا كوخ البغال، وكان يتردَّد غريمنا علينا كثيراً خلال الفترة الَّتي سبقت السَّرقة، ويسأل والدي أسئلة دقيقة للغاية، وعرف تماماً أنَّ والدي ينتهي من الحراثة في نفس اليوم الَّذي اِنتهى فعلاً من الحراثة، حتَّى أنّه قال لوالدي بعد الحراثة الطَّويلة تستطيع أن تنام نوماً عميقاً ولا داعي أن تقدِّم علفاً للدواب بعد منتصف اللَّيل في هذه اللَّيلة، وبإمكانكَ أن تقدَّم لهم علفاً مرّة واحدة في مستهلِّ السَّهرة وتنام بعدها مرتاحاً ولو مرّة واحدة في هذا الشِّتاء الطَّويل!

أجابه والدي معك حق، كي أرتاح ولو ليلة واحدة بعد هذا العناء الطّويل!

وقد وردنا معلومات من نفس القرية الّتي باتوا فيها مع الدَّواب ليلة السَّرقة، على أنَّ غريمنا كان في نفس القرية ليلة السَّرقة، وحدَّدوا لنا البيت الَّذي نزل فيه مع شخصين غريبين، ثمَّ جاءنا بعد أيام رجلٌ من القادرية يعمل حارساً ليليّاً، يدعى عبدالعزيز شبلي، وأدلى بشهادةٍ لا يخرقها الماء!

عندما التقيناه، حدَّد لنا مواصفات البقرات، والبغلة وحدَّد أحد اللُّصوص من قرية بازندان، وهو صاحب البيت الَّذي بات عنده غريمنا الَّذي قام بدور الآتاخ وتسهيل عملية السَّرقة، مع شخصين آخرين غريبين، يتحدّثان التُّركية فعرف أنَّ البقرات والبغلة مسروقات بدون أيِّ شكّ، لأنَّه عرف شخصاً من هؤلاء الثَّلاثة من خلال شكله وصوته، لأنَّ السَّماءَ كانت نوعاً ما قمراء، سمعه يقول للشخصين يجب علينا أن نستعجل كي

ندخل الأراضي التُّركية قبل اِنبلاج الفجر! ولكن الشَّاهد الَّذي كان يعمل حارساً ليليَّاً في ذلك الوقت بالذَّات، لم يستطِعْ التَّصرف ولا إيقافهم، لأنّهم كانوا مسلَّحين وكان هو الآخر مسلَّحاً، يحمل مسدس عيار 9 ملم على حدِّ قوله! وقال لنا بالحرف الواحد، أنّني حسبت حسابي لو أتصدَّى لهم، لن أنجح في مجابهتهم واِسترداد الدَّواب منهم، لأنّني كنتُ لوحدي، وغير قادر على مجابهة ثلاثة لصوص مسلَّحين! وعندما اِنتشر الخبر في ديريك، وسمع الخبر، لم ينتظر يوماً واحداً، جاء بسرعة خاطفة من القادريّة إلى ديريك كي يلتقى مع والدي ومع كلِّ أسرتنا، وشاهدته أكثر من مرّة، وأبدى اِستعداده التَّام أن يشهد في المحكمة مقابل مبلغ من المال كونه يعرَّض نفسه وأسرته للخطر، فوافق والدي على شروطه وفعلاً أعطاه والدي مبلغ 400 ليرة سوريّة في ذلك الزَّمان! وتعادل أكثر من مليون ليرة سوريّة الآن، بعد أن هبطتْ قيمة اللَّيرة السُّوريَّة بعد كلِّ هذه السِّنين إلى منزلقات أكوام التِّبن!

لم نتمكَّن من إسناد قضيّتنا إلى محامٍ، اِكتفينا بتقديم اِستدعاء إلى مدير المنطقة والاِعتماد على شاهد يعمل حارساً ليليَّاً لدى مزارع الدَّولة.

كتبتُ الاِستدعاء بنفسي وقدّمتها إلى مختار ديريك موسى ملكي، كي يدقَّها على الآلة الكاتبة، وألصق عليها طابعاً ماليَّاً بقيمة مائة وخمسة وعشرين قرشاً، ليرة وربع، وعندما قدّمنا الاِستدعاء إلى مدير المنطقة أرفق المختار ورقتي أيضاً بالاِستدعاء!

استلم مدير المنطقة الدَّعوى التي قدَّمناها من خلال الاِستدعاء ضدّ اللُّصوص، وألقى نظرة عليها، ثمَّ سألني مَنْ كتب هذه الاِستدعاء؟

قلت له أنا كتبتها سيّدي.

ولماذا أخذتها للمختار؟

كي يدقّها على الآلة الكاتبة ويضع عليها طابعاً وختماً.

كان بإمكانك أن تضع عليها طابعاً بنفسك، وتصبح الاِستدعاء جاهزة تماماً، لأنَّ خطَّك أوضح وأجمل ممّا كتبه المختار بآلته الكاتبة!

فرح والدي وسررتُ أيضاً لإطراء مدير المنطقة وإشـادته بخطِّـي، وسـألني في أيِّ صـف أنتَ؟

الصَّف الثَّامن سيدي.

عندك مستقبل كبير، طالما أنت في الصَّف الثَّامن، وعنـدك هـذا الخـط الجّميـل وهـذا الأسلوب في كتابة الاِستدعاء!

خرجنا وكلّنا أمل أن نستردَّ حقوقنا بالقانون، بعيـداً عـن أيِّـة مـشاكل، مـا كنـتُ أميـل خوض المشاكل كما كان يحصل أحياناً بين بعض الأُسَر الكبيرة في ديريك، حتَّى والـدي مـا كـان يحبُّ هكذا نوع من المشاكل، لكن أحياناً يضطرُّ الإنسان أن يخوض أيَّة مشكلة تعترضـه، فـلا مناص من الهروب منها، ومع هذا كنتُ ومازال أجنح أكثر من بقيّة إخوتي وأهلي نحو الـسّلم واللُّجوء إلى إحقاق الحقِّ عبر القانون، مع أنَّ القوانين السَّائدة هنـاك قـوانين مطَّاطـة، ممكـن خرقها عبر أكثر من طريقة، ناهيك عن الرّشـاوي الَّتـي طغـت فـوق الميـزان الَّـذي يعلـو قبّـة المحاكم!

بعد فترة وردنا من المحكمة موعد الجلسة الأولى، حضر والدي الجلسة ومعه الـشّاهد وأحد إخوتي، لم أحضر المحكمة لصغر سنّي، مع أنّني لو حضرتُ كنـتُ سـأقدّم حيثيـات تفيـد المحكمـة وتـدحض كـل مـا يقدّمـه محـامي الخـصوم، ولكـن للأسـف لم يـسمحوا لي بحـضور جلسات المحاكم، إلَّا أنَّني كنتُ أقدِّم لأخـي ووالـدي كـلّ مـا هـو مفيـد ودقيـق، وقـد حـضّر الشّاهد شهادته وأدلى بها بدقّة متناهية في المحكمة وعلى أكمل وجـه، ومـع هـذا بعـد عـدّة جلسات لم نصل إلى نتيجة قطعيّة وطُويت القضيّة بسبب عدم توكيل محامي يتـابع القـضيّة، فخشينا أن نرصد مبلغاً آخر من المال للمحامي، إضافة لما قدّمناه للـشاهد، ونخـسر كـلّ شيء بعد أن خسرنا ما خسرناه!

قرَّرَ والدي أن يبحثَ عن دوابه بطريقته الخاصَّة، بعيداً عن أبواب المحاكم، لأنّه عرف أنَّ أبوابها مغلقة في وجهه، طالما قائمة على سباق الرّشاوي، وتَخلْخَلَ فيها ميزان النّزاهة.

21

ذهاب والدي إلى آزخ بحثاً عن بقراته وبغلته وتوقيفه على الحدود

اِنزعج الشَّاهد لنتائج المحكمة، لكنّنا لم نقطع الأمل عن عمليّات البحث للوصول إلى مكان وجودهم، وقد صمَّم والدي أن يوجّه أنظاره نحو آزخ، بعد أن وردنا أخبارٌ من هناك بوجود ثلاث أبقارٍ وبغلة بنفس مواصفات دوابنا، فجهّز والدي جواز سفره ليوجّه أنظاره نحو مرافئ الصِّبا ومسقط رأسه آزخ، بل كوفخ إحدى قرى تركيا للبحث عن بقراته وبغلته الشّمّوسة!

كيف سيذهب والدي إلى آزخ وحيداً وسيراً على الأقدام؟!

فكّرنا بطريقة نخفِّف عليه من عناء الطَّريق، فخرجنا بنتيجة مفادها أن يأخذ أخي نعيم والدي على درّاجته إلى الحدود السُّوريّة.

ركب والدي على الدّراجة من الأمام كي يتمكّنَ أخي من تلقّفه والإمساك به تفادياً من السُّقوط، وانطلق عبر طريق عين ديوار، مارّاً بقصر ديب وعين بازوق وعين ديوار، ثمَّ الحدود التّركيّة بانتظاره، وخلال نصف ساعة تقريباً أوصله إلى أقرب نقطة تفتيش، وهناك ودّعَ أخي والدي بعد أن عبر الحدود التُّركية وتوارى عن الأنظار!

عندما وصل والدي إلى نقطة التَّفتيش، تحدَّث مع الكونترول باللُّغة التُّركيّة، فطلبوا منه جواز سفره، زودّهم جواز سفره الَّذي حصل عليه لأوَّل مرّة في حياته ولأوَّل مرّة في حياته يستخدم ذلك الجواز!

أخذ شرطي الحدود جوازه ليدقِّقه عندما رأى والدي يتحدَّث التُّركية، وعاد بعد دقائق وقال لوالدي أنتَ مقبوض عليك بتهمة تشكيل فرار من الجيش التُّركي بتاريخ ... وحدَّد لوالدي تاريخ فراره من الجيش التُّركي، وقد أعطى والدي كلَّ المعلومات صحيحة، بما يتعلّق بإسمه وتاريخ ومكان ميلاده إلى سجلات نفوس المالكيّة/ديريك أثناء

فراره إلى سوريّة، لهذا من السُّهولة اِكتشاف فراره من الجيش التُّركي، فكان في مـصيبة وخـرج بمصيبةٍ أكبر!

لم ينكر والدي قضيّة فراره من الجـيش الـتُّركي قبـل أداء خدمـة العلـم بأربعـة شـهور، وبعد جدال قصير قال والدي له، فرَّ أخي وأختي وزوجتي وصهري إلى الحدود السُّوريّة، هرباً من البطش الَّذي كانوا يعانون منه، فاضطررت أن أشـكِّل فـراراً، للحـاق بهـم ولـو لم نتعـرَّض للضغوطات والإهانات والقتل، لما فرَرْنا إلى سوريّة، ومع كلِّ هذا ما هي جريمتي؟ أنّنـي لم أؤدِّ الخدمة الإلزاميّة المطلوبة، في ذمَّتي أربعة شهور خدمة، ليس لديَّ أي مانع من تأديـة خدمـة هذه الشُّهور الأربعة اِعتباراً من اليوم، بحيث أن تناسب عمري!

نظر الشُّرطي إلى والدي وهو يبدي اِستعداده التَّام لخدمة ما تبقّـى عليـه مـن خدمـة العلم، بعد أكثر من أربعين عاماً من فراره من الجَّيش التَّركي!

هزَّ رأسه ثمَّ أخذَ والدي إلى غرفة التَّوقيف، وقـال لـه أنـت موقـوف هنـا تحـت ذمّـة التّحقيق، سأسأل الضَّابط المسؤول عن وضعك.

اِنتظر والدي في غرفة صغيرة بعد أن أقفل الباب عليه. نظر حوله، اِنفرش ماضيه أمامه دفعةً واحدة، عاد بعد أكثر من أربعين سنة، فاستقبلته الجدران الَّتـي اِضـطهدته، فجـأةً قفـز إلى ذهنه أيَّام سنوات الخدمة العسكريّة، همس في سرّه كيف سـأخبِّر أسرتي فـيما إذا ضـمُّوني إلى خدمة العلم وأخدم هذه الشُّهور الأربعة، ماذا لو سجنوني فترة من الـزَّمن بـسبب فـراري من الجيش، هل من المعقول أن يعاقبوني بعد أربعين سنة من فراري؟

عجيب، نسيت كلِّياً أنَّني كنت فارّاً من الجيش، كيف فاتني هذا الأمـر، لمـاذا تحـدّثتُ معهم بالتُّركية حتّى شكّوا في أمري وطلبوا جواز سفري ودقَّقوا فيه واكتشفوا أمري؟

كنتُ أريد أن أقدِّم لهم خدمة التّرجمة، وإذ بي أورّط نفسي بخـبراتي في اللُّغـة التُّركيـة! كيف لم أنسَ اللُّغة التّركيّة بعد أكثر من أربعين عاماً؟ ما هـذه الـذَّاكرة العجيبـة لـديّ، لـساني انفتح على التُّركيّة وكأنّني البارحة شكَّلت فراراً!

فجأة قطعه من شروده وتساؤلاته، صوت الشُّرطي وهو ينادى من كوّة غرفة التّوقيف، صاموئيل أوغلي يوسف، صاموئيل ابن يوسف.

أجاب والدي نعم!

فتح الباب لوالدي وقال له تفضّل معي إلى عند الضَّابط المناوب!

ذهب والدي مع الشّرطي إلى الضَّابط المناوب، فاستقبله وسأله لماذا جئت إلى تركيا بعد أكثر من أربعين سنة من فرارك من الجيش؟!

لم يرِدْ والدي التَّطرّق إلى قصّة سرقة الدَّواب، لأنّه خشي أن يعتبر هذا اِنتقاصاً للشعب التّركي ولتركيا لأنَّ لصَّين من اللُّصوص كانا أتراكاً، فقال له جئت إلى تركيا بعد أربعين سنة لأنَّني اِشتقت إلى خالي يعقوب قريوكي، والَّذي يقيم في آزخ، إيدل، وأصلاً نسيت كلِّياً قضيّة فراري من الجيش، ولكن لو تقاضوني أن أخدم بقيَّة خدمتي، ليس لدي أي مانع!

لا، لا نريد أن تخدم بقيّة خدمتك لأنَّ العقوبة المترتِّبة على فرارك من الجيش ماتت بسبب مرور سنين طويلة عليها، وتجاوزت مرحلة الخدمة لهذا أنتَ معفى من الخدمة، ومعفى من أيّة عقوبة، وبإمكانك أن تزور خالك يعقوب قريوكي في إيدل لمدِّة شهر كما هو محدَّد في جواز سفرك.

يعني أنا الآن حرّ، وأستطيع الذِّهاب إلى آزخ.

نعم أنت حر، وتستطيع الذِّهاب الآن، تفضَّل هذا جواز سفرك والله معك.

ولكن قبل أن تذهب أريد أن أسألك، هل كنتَ تتحدَّث التُّركية في سوريّة خلال هذه الفترة؟

لا، ما كنتُ أتحدّثها.

كيف لم تنسَها خلال كل هذه السِّنين؟

إنّها مخبّأة هنا، في رأسي!

ضحكَ الضَّابط وقال فعلاً عندك ذاكرة قويّة يا صاموئيل!

ثمَّ سأله والدي عن أقرب طريق للذهاب إلى آزخ؟

هل ستذهب إلى آزخ سيراً على الأقدام؟

أيوه، سيراً على الأقدام.

لكنّ المدينة بعيدة نوعاً ما من هنا.

ولو بعيدة، أستطيع السَّير على مهلي.

نظر إلى والدي وقال له دقيقة!

نادى أحد الحرّاس، جاء ورسم مخطّط الطَّريق لوالدي، ودّعهم والدي ووجّه أنظاره نحو ربوع آزخ، مدينة الذّكريات والطُّفولة والشَّباب ومسقط الرَّأس!

فيما كان والدي يسير في عزِّ الظهيرة، تراءت أمامه دفعةً واحدة طفولته ويفاعته وشبابه. تراءت أمامه قريته الأولى كوفخ، ثمَّ انتقال أسرته إلى آزخ، تذكَّر كرومه، تذكَّر والده وهو يحرث أراضيه الشَّاسعة، تساءل في نفسه، لماذا نهاجر من دولة إلى أخرى مثل الغجر، لماذا نتعرَّض للمذابح والقتل والتَّنكيل والتَّهجير؟!

إنَّنا كسريان لم نقدِّم إلّا الخير والمحبَّة لكلِّ الدُّول الَّتي توزَّعنا فيها، فما هذه الفرمانات الَّتي حلَّت وتحلُّ بنا وممكن أن تحلَّ بنا في مستقبل الأيَّام؟!

أين أنتَ الآن يا خالي يعقوب قريوكي؟ آمل أن تكون بخير وتأخذني بين أحضانك يا خالي، فتذكَّر جملةً يضربونها مثلاً في خاله، يردِّدُه القاصي والدَّاني من الكرد والسُّريان، تتعلّق بعمل خاله "دركوشة" لإحدى العائلات الكرديّة وهي:

"شغلي قريوكي ثَمَا شَف وروكيه"! أي شُغل قريوكي لم يبقَ ليلة ونهاراً! لأنَّ خال والدي كان قد صنع دركوشةً، مهد لطفل كردي وبعد أن اِستلمها صاحبها تعطّلت في اليوم الأوّل، فقال أبو الطّفل:

"شغلي قريوكي ثَمَا شَف وروكيه"، قاصداً أنَّ الدَّركوشه الَّتي صنعها يعقوب قريوكي، تعطّلت في اليوم الأوَّل ولم تبقَ صالحة ليلة ونهاراً، وأصبح هذا الكلام مثلاً نردِّده حتَّى الآن، كناية على رداءة العمل!

حالما أصبح والدي على مشارف آزخ، بدأت دموعه تنساب مثل طفلٍ صغير، وكأنّه شاهد لعبةً فقدها منذ أمدٍ بعيد، فجرفته شلّالات الحنين.

ذهب إلى بيته أولاً، دار حوله، سلّم على ساكنيه، وقال لهم هذا كان بيتي منذ أكثر من أربعين عاماً، استقبلوه ودعوه لشرب كأس من الشَّاي ودعوه إلى الغذاء، فاعتذر

منهم وقال لهم أنا في زيارة لخالي يعقوب قريوكي، فقالوا له، بيت عمو يعقوب يقع في الجهة الأخرى، فأجابهم والدي أعرف بيته ومراراً ذهبت لبيته لأنّني عشت هنا سنوات طويلة فلا تدلُّوني على بيت خالي الّذي لم يبارح ذاكرتي كلّ هذه السِّنين!

عبر والدي بيت خاله يعقوب قريوكي، لأنَّ باب الحوش كان مفتوحاً على مصراعيه، أخذه خاله بالأحضان وقال لزوجته "تعي رَيْ مني كوجا عندنا، وركي خارزيتي صامو كوجا عندنا"! تعالي وانظري من جاء لزيارتنا، صامو ابن أختي قد زارنا!

تفاجأت زوجة خال أبي بأبي وكذلك خاله وأولاد خاله، وفرح الجميع بقدومه، تعانقا طويلاً وخرَّت دموعهم من شدَّة الشَّوق العميق، سألوا عن أمِّي وعمّي وعمّتي وعن الأولاد والبنات!

كلّهم بخير ويسلّمون عليكم كثيراً.

وعندما عرف خال والدي أنّه قصد آزخ للبحث عن بقراته، قال ممازحاً لوالدي، "مليح صامو دوابك انسرقوا، وإلّا بحياتك بلكي ما كانْ تفكّرْ تجيْ لآزخْ وَتْزُوْرُنَا". مليح صامو سُرقوا دوابك، وإلّا ممكن بحياتك ما كنتَ تفكِّر أن تأتي لآزخ وتزورنا.

يعني انبسطت دوابي انسرقوا!

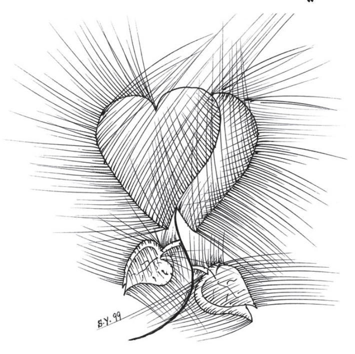
لا ما انبسطت، بس انبسطت شفتوك، ولولا سرقة دوابك ما كنَّا شفناك!

أعدَّت زوجة خال والدي غذاء شهيَّاً لوالدي واحتفلوا بقدومه، ثمَّ تجاذبوا أطراف الحديث عن ذكرياتهم أيَّام زمان، وبعد أن تناولوا الغذاء وشربوا الشَّاي، خرجوا يتجوَّلون في آزخ وأطراف آزخ، وذهبوا إلى البيرمي، وإلى الكروم، واستعاد والدي ذكرياته الطَّيِّبة في آزخ، وقضى أيّاماً طيّبة هناك.

تألّم خال والدي عمّا حصل لوالدي، لم يجدوا أثراً للبقرات ولا للبغلة في آزخ، وتبيّن لهم أنَّ الجُناة عرفوا بأنَّ والدي سيذهب إلى تركيا وآزخ تحديداً للبحث والتَّقصِّي عن مصير دوابه المسروقة، فنقلوهم من تركيا إلى العراق، على حدِّ ما تناقلته الأخبار هناك، وهكذا فكّر والدي بعد عودته من تركيا أن يوجّه أنظاره هذه المرّة نحو العراق، بحثاً عن بقراته وبغلته من جديد!

قطع زيارته قبل نهاية الوقت المخصَّص له في جواز سفره، لأنّه كان يفكِّر طوال الوقت بطريقة دقيقة للوصول إلى دوابه الَّتي تمَّ نقلها إلى العراق!

أدهشني والدي بطريقة تفكيره، وطريقة بحثه وتحرِّياته عن دوابنا المسروقة، وإنَّ أجمل ما في قصّة سرقة الدّواب هو هذا البحث الدّؤوب عبر القرى والبراري وعبر الدُّول عن ثلاث بقرات وبغلة، راودني مراراً، كيف لو تعرّض أحد أولاده للاِختطاف لا سامح الله، كما يتعرَّض أولاد الكثير للاِختطاف في الوقت الرّاهن؟!



22

عودة والدي إلى ديريك والتَّخطيط للبحث عن دوابه في العراق.

جاء الكثير من الأهل والأصدقاء والجيران لزيارتنا، بعد عودة والـدي مـن آزخ، تحـدَّث لنا عن خاله وزوجة خاله وأولاده. نسينا قضيّة البقرات، وأصبحت زيارته محور الحديث، ثـمَّ دخل أحد الأصدقاء على الخطِّ، يسأل والـدي فـيما إذا عـثر عـلى البقـرات أو لديـه أخبـار مـا تتعلّق بهم؟

أجابهم والدي أنّه علم من بعـض الَّـذين صـادفهم في آزخ أنَّ دوابـاً بهـذه المواصـفات كانت في آزخ لكنّها نُقِلَتْ إلى الموصل، لهذا قطعتُ زيـارتي قبـل نهايـة الوقـت المحـدَّد لي، كي أوجّه أنظاري نحو الموصل!

طيّب، لماذا لم توكِّل قضيّتك إلى محامي طالما لديك شاهد وعنده الاِسـتعداد أن يـشهد في كلِّ المحاكم وأينما كانت المحكمة وقد قبض حقَّ شهادته كمافأة؟

لا داعي للمحاكم، لو استطعت أن أجد بقراتي وبغلتي عن طريقـي الخـاص كـان بهـا، وإلّا فهي ليست من نصيبي، لم أدق باب المحاكم بعد اليوم!

بعد أيَّام زارنا العم جبرو أبو جميل جبرو، وإذ بـه يتبنّـى مرافقـة والـدي للـذهاب إلى الموصل وقراها بحثاً عن البقرات.

شيء مدهش أن ترى شيخاً، يعبر أعماق الدُّول بحثاً عـن دوابـه المـسروقة، مـشياً عـن الأقدام، وراكباً على درّاجة ابنه. إنّني أرى موقف والدي بديعاً للغاية، لأنَّ دولة برمّتها عـاجزة عن التَّحرّي عن هكذا قضيّة عـبر الـدُّول، فكيـف بـه يـصرُّ عـلى متابعـة البحـث عـن دوابـه المسروقة بنفسه، مشياً على الأقدام في أعماق البراري في دول الجّوار؟!

توطّـدت علاقـة والـدي مـع شـاب شـهم، مـن جيـل أخـي الكبـير، كـان يـدعى عبدالقادر، كنتُ أعرف والده أيضاً، لكنّي لم ألتـقِ بوالـده في منزلنـا في تلـك الفـترة، كـان مـن الرِّيف، لم أتمكّن أن أعـرف الموضـوع الَّـذي كـان يجمـع والـدي مـع شخـصيّة جـادّة وشـهمة

من جيل أخي، فحاولت التَّدخل في بعض نقاشاتهم، وإذ بـه يـزوِّد والـدي بـبعض المعلومـات والخيوط الَّتي تقوده إلى مكان وجود البقرات في العراق. عجباً أرى، تحرّيات في منتهى الدّقّة!

عبرت بقراتنا حدود الدُّول، أخشى أن يعبروا قريباً حدود القارَّات، فليس من المـستبعد أن يتمَّ نقلهم إلى إيران، ومن يدري فمن المحتمل لو دخل خبراء في سلالاتهم أن ينقلونهم إلى الهند، في هذه الحالة لا يمكن لأحد أن يتعـرَّض لبقراتنـا، لأنَّ للأبقـار حـصانة في الهنـد، تعتـبر مقدّسة، أتمنّى أن تصل أبقارنا إلى الهند وتعيش هناك مدلَّلات من قبل أصحابها الهنود.

فيما كنتُ سارحاً في أحلامي، أتخيّل بقراتنـا مزيّنـات أحـلى زينـة في إحـدى المناسـبات الَّتي تقدِّس الأبقار، قطعني والدي من شرودي، يسألني عن أمِّي.

لا أعرف أين ذهبت أمِّي، لكن أغلب الظَّن أنّها ذهبـت إلى سـوق المدينـة كي تتـسوَّق بعض الحاجات المنزليِّة، أو ربّما في زيارة خاطفة لبيت أحد الجيران.

خير، ماذا تريد منها؟!

بعد قليل سيأتي عمّك جبرو أبو جميل من قرية بورزي، لهذا سنحتاج أن تعدَّ لنا بعض الطّعام ثمَّ نشرب بعد الغذاء كأس شاي.

هل خبرتها قبل خروجها من المنزل عن هذا الموضوع؟

تعلم هذا منذ البارحة.

إذاً ستأتي طالما لديها علم بهذا الأمر.

فيما كنتُ أهيِّئ نفسي للخروج من المنزل، وجـدتُ أمِّـي تعـبر الحـوش وهـي محمّلـة ببعض الحاجات الَّتي اِشترتها من السُّوق، فقلت لها، بابا يسأل عنكِ.

ألا يعرف أنَّني ذهبتُ إلى السُّوق لأشتري بعض الحاجـات الـضُّروريّة، لأنَّ عمّـك جـبرو سيزورنا اليوم ولابدَّ أن نجهّز الغذاء لأنّه سيأتي من القرية وسيبقى عنـدنا حتَّـى العـصر، لأنَّـه مشغول مع والدك طوال الوقت.

أصلاً والدي يسأل عنك كي تجهِّزي غذاء لهم.

بابا أنا طالع عند رفاقي أقرأ دروسي معهم، سأعود بعد حوالي الظُّهر في موعد الغذاء.

مع السَّلامة ابني.

اللـه يسلمك.

خرجت من المنزل، كي ألتقي مع ابن عمِّي شكري ونقرأ دروسنا في الطّبيعة، نعبر أعماق البراري، خاصّة في بداية الرَّبيع، نيسان بسمة فرحٍ في ربوع سهول القمح، نسير على طريق ديريك عابرين الأراضي الزِّراعية، نحو تخوم كرزرك، ثمّ نتابع السَّير باتِّجاه قزرجب لنرتاح هناك في بيت أختي نعيمة، وكان يجذبنا دافع كبير للاِسترحة هناك، لأنَّ أقراص العسل كانت دائماً بانتظارنا. تحضِّر أختي نعيمة لنا أقراص العسل بعد قطعِ مسافة ساعاتٍ ونحن نقرأ في أعماق حقول القمح، حيث كانت سهول القمح تعانق الطُّرقات من كلِّ الأطراف، كنتُ أرفع صوتي أثناء تحضيري ومراجعاتي لدروس التَّاريخ والجغرافية والمجتمع وكانوا يطلقون على هذه المادّة في البدايات تربية وطنيّة، وأحفظ القصائد الشِّعريّة غيباً. وكم كنتُ شغوفاً بقراءة دروس اللُّغة الإنكليزيّة في البرِّيّة منذ بداية المرحلة الإعداديّة حتَّى نهاية المرحلة الثَّانويّة، أحفظ المفردات الصَّعبة كتابةً ولفظاً ومعنىً!

أردِّد الكلمة عدّة مرَّات وأحفظها إملائيّاً ولفظاً ثمَّ أحفظ معناها، وكنت أضع الكلمة في جملٍ مفيدة بنفسي في الوقت الَّذي كنت أحضِّر معناها، لهذا كنت متقدِّماً عن أقراني بهذه المادّة الَّتي أحببتها إلى درجة العشق! وفي المساء كنتُ اخترع طرقاً لحفظ الكلمات الجَّديدة إملائيّاً، فأكتب الكلمة عدّة مرات، وأتدرّب على كتابتها خطِّيّاً وتهجئتها لفظيّاً حرفاً حرفاً، كما أنّني خصَّصتُ دفتراً للكلمات الصّعبة مع ترجمة معانيها إلى العربيّة.

أصبحنا على مشارف قرية قزَرجب، نرى بكلِّ وضوح بيوت القرية وأشجار التُّوت العالية ومنْحَلة بيت أختي في مدخل القرية.

حالما شاهدتنا أختي نعيمة، قالت حميتكن عم تحبكن، تفضَّلوا كلوا ها هـي أقـراص العسل تنتظركما، لقد قطفناها منذ لحظات!

يا إلهي كم كنَّا نستمتع بأكل العسل الطَّبيعي الصّافي اللّذيذ مع خبز التَّنُّور، بعد عبورنا البراري الفسيحة بين اخضرار الطَّبيعة، نشرب الماء البارد واللَّبن، ونأكل أقراص العسل بشهيّة مفتوحة.

يبتسم لنا صهري كوري ووالده العم عيسى أسمر، يرحّبون بنا ويسألون عن الأهل، وعن والدي، فأجيبهم الوالد بخير وجاء منذ أيَّام من آزخ والتقى مع خاله يعقوب قريوكي وزوجة خاله وأولاد خاله.

ودّعنا أختي وصهري والأهل والأولاد وعدنا إلى ديريك بعد وجبة شهيّة من أقراص العسل الصّافي.

أجمل الأيَّام قضيتها في قراءة الدُّروس في براري ديريك وأجمل الاِستراحات قضيتها برفقة الأصدقاء في بيت أختي نعيمة.

عدنا أدراجنا نراجع ما قرأناه، كنتُ أحياناً أقرأ بكتابين دفعةً واحدة أحضِّر درس التَّاريخ مثلاً، ثمَّ أخرج كتاب الإنكليزي من حزامي وأضع مكانه كتاب التَّاريخ، لأنّني كنتُ أملُّ من مراجعة درس واحد لمدِّة ساعات، إضافة إلى أنَّ تحضير وحفظ درس واحد من بضعة صفحات ما كان يأخذ منّي وقتاً أكثر من نصف ساعة أو ساعة، بحسب تفاصيله، لهذا أغلب الأحيان كنت أحمل معي كتابين كي أحضِّر درسين أو أكثر في كلِّ رحلةٍ من رحلاتي في الهواء الطَّلق، وأراجعها أكثر من مرة ترسيخاً للمعلومات.

أصل البيت منهوك القوى، مرحبا ماما.

أهلاً أبوي.

مليح إجيت، الأكل جاهز تفضَّل خذ راحتك، سأصبُّ الأكل بعد قليل.

أهلاً عمُّو جبرو، أسلِّم على صديق والدي، ثمَّ أتوجّه إلى المطبخ وهو عبارة عن غرفة صغيرة متّصلة بغرفة حياتنا اليوميّة، وكنّا نطلق عليها "البخيري"، فيها كلُّ ما يتعلّق

بأدوات المطبخ والمونة وفيها فسحة صغيرة مصبوبة ومسيَّعة بالإسمنت خاصّة بالحمَّام، أغسل وجهي وقدميّ ويديّ، وأجهّز نفسي لتناول طعام الغذاء!

أختي نعيمة تسلّم عليكم مع زوجها وحميها والأولاد جميعاً.

أهلاً وسهلاً بك وبهم.

رحت إلى قزرجب.

أي ماما، قرأنا أنا وابن عمّي شكري من ديريك إلى قزرجب، استقبلتنا نعيمة بكلِّ فرح، وقدّمت لنا أطيب أقراص العسل. إسترحنا هناك قليلاً ثمَّ عدنا وعلى طول الطّريق نحضِّر دروسنا ليوم الغد! تمتّعنا في جمال الطَّبيعة، والتقينا بالأهل وحفظنا دروسنا.

يعطيك العافية ابني، كون شاطر بلكي يصير منّك شي. غابت قليلاً ثمَّ جاءت وقالت لنا، تفضَّلوا الأكل جاهز.

أعدَّتْ لنا أمّي سميديّة على حمام، فقد اِختار والدي زوج حمام، كان الطَّعام لذيذاً مع لحم الحمام.

"خارْنَهْ تَهْ خشا دْيَا سليمان"! طعامُكِ لذيذ أم سليمان، قال العم جبرو.

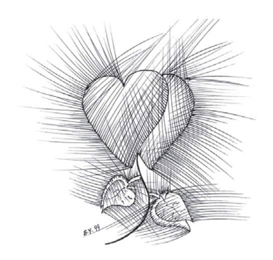
تناولنا الغذاء بلذّة، ثمَّ شربنا الشَّاي بعد الطَّعام، ثمَّ قال لي الضَّيف العزيز يا عيني أنا وأبوك قرَّرنا أن نسافر إلى الموصل بحثاً عن بقراتكم وبغلتكم المسروقة، فقد جاءني أخبار أنَّ الدَّواب هم في إحدى قرى الموصل وهناك لدي بعض المعارف كي نبيت عندهم، ونبحث عن دوابكم المسروقة، ونأمل أن نجد هناك لهم أثراً، عندها سنضع من عندهم الدَّواب تحت الأمر الواقع ليعترفوا لنا كيف وصلت إليهم، وبعدها سيأخذ كلُّ واحد حقَّه.

هذا الموضوع يتوقّف يا عمِّي على والدي وإخوتي، أنا من جهتي موافق على كلِّ ما توافقون ويوافقون عليه إخوتي.

هزَّ عمّو جبرو رأسه، ثمَّ قال ردَّ جيّد ويدلُّ على فهمٍ كبير.

كان العم جبرو لا يجيد سوى اللُّغة الكرديّة بطلاقة، لهذا كنّا نتحاور معه بالكرديّة، مع أنّه سرياني وابنه تزوّج ابنة عمّتي، فكان بيننا مصاهرة وعلاقة طيّبة تجمعه بوالدي وبكلِّ العائلة!

بعد حوالي أسبوع من زيارة العم جبرو إلينا، وجّه هو ووالدي أنظارهما نحو العراق، قاصدين إحدى قرى الموصل، ظلّا هناك قرابة أسبوعين ولم يعثرا على أثرٍ للبقرات والبغلة، فعادا بعد رحلة طويلة قضياها عند بعض معارف العم جبرو من الأصدقاء الكرد، حيث كانت تربطه علاقات وصداقات مع الكثير من العائلات الكرديّة داخل سورية والعراق، ومع هذا لم يصلا إلى مكمن الأبقار، فجاءا إلى ديريك، ثمَّ توجّه العم جبرو إلى قريته بورزي، فما وجد والدي بعد رحلاته وبحثه الطَّويل، أنجع من أن يترك مصير بقراته وبغلته للزمن، للحياة، لنصِّي السَّردي الَّذي اِستلهمتُ من فضاءات تلك الحقبة من الزّمن أحلى الذّكريات، بالرُّغم من أنّها كانت في حينها لحظات وأيّام قاسية، لكنّها تبدو لي الآن كأنّها هديّة متهاطلة عليّ من ذاكرة معجونة بوهج الحنطة، ومتلألئة ببياض حليب البقرات الّذي شربته مراراً في صباحات الشّتاء الطَّويلة، فتسطع أمامي جولات والدي المكُّوكيّة بقامته القصيرة، بحثاً عن بقراته الثّلاثة وبغلته البنِّيّة الشَّموسة، راضياً بقدره ونصيبه في الحياة، ومبتسماً لي بكلِّ ما أخطّه، فتجنح مخيَّلتي نحو ديريك ببراريها الفسيحة، فترتسم أمامي قامة والدي، وهو يحرس حقول الحنطة الخضراء المترامية الأطراف، متسرخياً تحت قبّة السَّماء على أنسام الهواء العليل، فيجرفني الحنين إلى بسمته الوديعة وإلى أحضانه المعبّقة بالأزاهير البرّية وأشهى ما في شموخ السَّنابل من نِعَمِ العطاء!



23

بغلتنا البيضاء

لم تستسلم بغلتنا البيضاء، عندما تعرّضنا للسرقة، ظلّت تقاوم فسرقوا البغلة البنّية الشَّموسة، وثلاث بقرات، كانت البغلتان في كوخ متاخم لغرفة النَّوم، وكان كوخ البقرات من الجهة الأخرى من الحوش، بعيداً عن غرفة النَّوم!

اِضطررنا في موسم الحصاد، أن نعتمد على بغلة واحدة في دراسة القمح والعدس والشَّعير، صمَّم والدي النّير بطريقةٍ، بحيث أنْ تجرّ بغلتنا البيضاء الجرجر لوحدها، مع أنّه ثقيل وراكب فوقه يصبح أكثر ثقلاً، ومع هذا تابع والدي يدرس أكوام الحنطة الكبيرة ببغلةٍ واحدة.

كم كنتُ أشعر بالأسى وأنا أركب على الجرجر وأقود بغلتنا لوحدها وهي تتصبَّبُ عرقاً، وتبذل جهداً مضاعفاً لوحدها لتقوم بعمل بغلتين، حتّى أنَّ بقيّة الفلّاحين، أصدقاء والدي قالوا لوالدي خذ إحدى بغالنا كي تساعد بغلتكم، فرفض والدي أن يعطِّل شغلهم وقال لهم، سأدبِّر أموري هذا الموسم وإلى الموسم القادم الله كريم!

اِنتهينا من دراسة القمح والعدس والشّعير، ثمَّ نقلنا المحصول والتّبن إلى البيت، وفكّرنا جدّياً بحلِّ المشكلة، فلم نتمكَّن من شراء بغلة جديدة وبقرات أخرى، كي نعوّض ما خسرناه، وناقشت مع الوالد بأن نبيع بغلتنا ونعطي أراضينا لمزارعٍ ما، كي يفلحها بالتّراكتور ويحصدها بالحصَّادة ونتخلَّص من قضيّة الحراثة بالفدَّان ودراسة الحنطة والشّعير بالنَّورج، وبعد أن درسنا الموضوع مع بقيّة إخوتي وأخواتي، وصلنا إلى قرار بيع البغلة والاتِّفاق معَ المزارع حنكو يعقو كي يحرث أراضينا ويحصدها مقابل الثُّلث له والثُّلثان لنا! وحالما عرض والدي بغلتنا البيضاء للبيع، تقدَّم أحد الفلاحين من قرية "حاجي مَطْري" لشرائها، كنَّا في حوشنا القديم في ديريك العتيقة، دخل أحد الفلّاحين وتساءل، هل هذا بيت صامو شلو؟

أجابت أختي، أيوه، هذا بيت صامو شلو، خير شو بدَّك؟

أجابنا، سمعت أنّكـم تريـدون أن تبيعـوا بغلـتكم، فجئـت لأشـاهدها لأنَّنـي أريـد أن أشتري بغلة كي تساعد بغلتي في الحراثة وأعمال أخرى.

خرج والدي من المنزل عندما سمعَ الفلّاح يتحدَّث عن شراء بغلتنا، ورحّـب بـه، وقـال له عندي بغلة مباركـة، هادئـة، شـغِّيلة، مطيعـة وقويّـة، لا أريـد أن أبيعهـا مـن شـدّة حبِّـي وتعلُّقي بها، ولكنِّي لا أحتاجها مثلما يحتاجها غيري، ولهذا فكَّرت أن أبيعها كي يـستفيد غـيري منها في العمل، حيث تحرث بشكل رائع، لا تخرج من خطِّ الفدَّان أبداً، ومطيعة للغاية، وقـد تعلّقت بها كأنّها إحدى أفراد أسرتي، وقد تعرّضَـتْ دوابي للـسرقة ولكـن اللّـصوص لم يتمكّنـوا من إخراج هذه البغلـة مـن عرينهـا، فظلَّـت تقـاوم، وسرقـوا رفيقتهـا وتركـوا خلفهـم البـاب مفتوحاً، على أمل أن تخرج تلقائيَّاً وتلحـق بهـم لكنَّهـا ظلَّـت في الكـوخ، وحاولـت أن تـرفس الحائط والباب إلى أن استقيظنا على صوت رفساتها! شعرتُ بـالفرح لأنّ اللُّـصوص لم يتمكَّنـوا أن يسرقوا هذه البغلة المباركة ولو اِتَّفقنا ستصبح من نصيبِكم!

أخرج والدي البغلة من الكـوخ، نظـر الفـلّاح إلى بغلتنـا ودار حولهـا يعاينهـا، وأمـسك هافسارها: رسنها، وبدأ يفرك رقبتها وظهرها، كانـت تنظـر إلينـا، وأشـعرتنا وكأنّهـا تعـرف أنَّ شخصاً غريباً جاء ليأخذها منَّا، لم ينقطع نظري عن والدي، كان على وشك أن يجهش بالبكـاء قبل أن يتفاوض على سعرها، وبدا لي وكأنّـه في موقـف بيـع أحـد أفـراد أسرتـه. تـاثَّرتُ جـدَّاً، واندهشتُ لتعلُّق والدي ببغلتنا إلى هذا الحدِّ، ثمَّ سأل الفلّاح والدي بكـم تريـد قيمـة هـذه البغلة والَّتي تبدو فعلاً كأنّها "فرس كحيل"، فرس من السُّلالاتِ الأصيلة!

أجاب والدي، نعم بغلتي هي مثل فرس كحيل، سـتدعي لي كثـيراً والأيَّـام سـتؤكِّد لـك صحّة كلامي، وحالما حدَّد والدي سعرها، لم يناقشه الفلّاح، سلّمَ عـلى والـدي وهـو يهـزُّ يـده، وقال البغلة وصلتني!

وافق دون مناقشة ولم يعرض والدي سعراً كبيراً لتعاطفه مع الفلّاحين، ولكنّه قال للفلّاح، أبيع لك بغلتي بهذا السِّعر، بشرط أن تحافظ عليها، وتقدِّم لها العلف بشكل مستمر، وبدأ يشرح للفلّاح كيفيّة رعايته بها!

اِستغرب الفلّاح من تعلّق والدي ببغلته، وكأنّه يوصي الفلّاح على رعاية أحد أفراد أسرته!

سلّم الفلّاح لوالدي المبلغ الَّذي طلبه، ثمَّ أمسك هافسارها: رسنها، وبدأ يسير بها، ولكنَّها ظلَّت واقفة تتشبَّثُ بالأرض وهي تنظر إلى والدي، حاول أنْ يجرّها عنوةً لكنّه لم يفلح، فقال له والدي لا تحاول أن تسحبها بالقوّة لأنَّها لن تسجيب لك ولن تستطيع جرّها بالقوّة.

أجابَ الفلّاح، طيِّب كيف سآخذها؟

شهق والدي بحسرة، ودمعته طافحة من مآقيه قائلاً، تستطيع أن تأخذها بعد أن أطلبَ منها أن تسيرَ معكَ!

جحظتْ عينا الفلّاح، قائلاً ماذا تقصد يا عمّو؟

قال والدي للفلّاح أنظر! وتقدَّمَ نحو بغلته، الَّتي خدمته سنيناً طويلة في عزِّ الشِّتاء، تحرث أراضيه، وتخدمه في كلِّ الفصول. تدرس حنطته، وتنقل محصوله وتبنه وجبسه وبطِّيخه وكل ما يحتاجه، وقال والدي له لا تشدُّ على رسنها. مرَّر والدي يده على رقبة البغلة، كانت تحرّك رقبتها وتحكُّ نفسها به، كأنّها تعرف أنّها ستفقده ويفقدها، حالة وداعيّة غريبة، ثمَّ طبطب على ظهرها وطلب منها أن تسير مع الفلّاح قائلاً: "وشّ وشَّا"، نظرتْ إلى والدي ثمَّ سارت بكلِّ هدوء دون أن يشدَّ رسنها، وقبل أن تصل إلى باب الحوش الخارجي، دارت قليلاً ونظرَتْ خلفها، كأنَّها تودّعنا الوداع الأخير.

ذرف والدي دمعتيه ونحن ململمون حوله، ومندهشون لهذا التَّواصل بين والدي وبين دابّة، يقولون عنها بغلة! والبغال معروفون بعنادهم، ولكن هذه البغلة كانت مطيعة قويّة شامخة وخدومة. سارت إلى قرية "حاجي مَطْرِيْ" مع فلّاح جديد، يحمل توصيات والدي في كيفيّة رعايتها والاِهتمام بها!

دارت الأيّام وجاءت الأيَّام، وبعد مرور قرابة عام ونصف، وفيما كنّا عائدين من الكـرم إلى سوق المدينة، أنزلنا سلال العنب، وإذ بي أجـد شـابّاً في العـشرين مـن عمـره، يجـرُّ بغلتنـا البيضاء، ولكن حالما وقع نظرها على والدي تشبَّثَتْ بـالأرض وكلَّـما حـاول الـشَّاب جرّهـا مـن رسنها، تشبَّثَتْ أكثر في مكانها ولم تتحرَّك، فغضبَ الشَّاب لهذا الـسُّلوك المفـاجئ، لأنّـه يعـرف بغلته مطيعة ولا تقوم بهذه المواقف العنيدة، فماذا حصل كي تتمنّـع هـذه المـرّة مـن الـسَّير. تثبَّتَتْ في مكانها ولم تقطعْ نظرها عن والدي؟!

راقبْتُ والدي، ماذا سيتصرَّف إزاء هذا الموقف؟

تقدَّمَ نحوَ الشَّاب، لأنّه ما كان يعرف أنَّ والدي هو صاحبها القديم، وسأله والدي، لِمَن هذه البغلة؟

إنَّها بغلتنا، وقد اِشتراها والدي من فلّاح منذ أكثر من سنة وهي بغلة مطيعة وتخدمنا بشكل رائع، ولا أعلم لماذا لا تستجيب وتتمنّع من السَّير؟!

هل تعرف صاحب البغلة الأوَّل؟

لا عمّو، لا أعرفه.

قال والدي وهو يبتسم للشاب، أنا صاحب البغلة وبعتها لوالـدك منـذ أكـثر مـن سـنة فعلاً.

أهلاً وسهلاً عمُّو، والآن هي بغلتنا ووالدي اشتراها منك.

نعم، والدك اشتراها منّي وأوصيته بـضرورة الاِهـتمام بهـا وتقـديم علفهـا في الأوقـات المناسبة و...

قاطع الشَّاب والدي قائلاً، صدّقني عمُّو والـدي لا يقـصِّر في حقِّهـا مـن هـذه النَّاحيـة ويرعاها أحسن رعاية، لأنّها فعلاً أفضل بغلة من بغال كلّ قريتنا وهي مطيعة جـدّاً ولا أعلـم لماذا لا تسير الآن؟!

هل تعرف لماذا لا تسير الآن؟!

لا، لا أعرف!

لأنّها شاهدتني ولن تسيرَ إلّا بعد أن أطلبَ منها وإلّا ستتمنّع مهما حاولتَ!

اِندهشَ الشّاب، وقال لوالدي وكيف ستطلبُ منها، هل تفهم عليك البغلة؟

نعم، تفهم عليّ، أنظرْ! تقدَّم والدي مثلما تقدَّم نحوها عندما باعها لوالده أوَّل مرّة، وبدأ يفرك رقبتها بكلِّ حنان، ومسّد ظهرها، كانت تعانقه بطريقة واضحة، تفرك نفسها به، استغربتُ من تواصلها معه، واِزداد الشَّاب استغراباً لما يراه بأُمِّ عينيه، ثمَّ طلب والدي منها أن تسير وهو يطبطب على ظهرها "وشّ وشّا"، فسارت مع الشَّاب دون أن يجرَّ رسنها، وقبل أن تدخل في أوّل زقاق اِستدارت قليلاً ثمّ نظرتْ إلى الخلف وكأنّها تودِّع والدي كما ودّعته في المرَّة الأولى، توقّف شعر جسمي، نظرتُ إلى والدي وهو يشهقُ حسرةً ويبتسم ودمعته منسابة قائلاً، سبحان الله حتّى الحيوان عنده حنين كبير إلى صاحبه، عندما يكون صاحبه مخلصاً معه!

شدَدْتُ يدي على يد والدي وحضنته ثمَّ غبنا في زحام المدينة، وفي زحامِ الحياة، كلُّ منَّا يفكِّر بما رآه بطريقته، لا أعلم بماذا كان يفكِّر والدي، الشَّيء الوحيد الّذي أعرفه أنّني كنتُ أشاهدُ اِنسياب دموعه، ربَّما شوقاً إلى ذكرياته الطَّيبة الَّتي قضاها مع بغلته البيضاء المطيعة للغاية، أكثر من طاعة الكثير من أولادِ وشبّانِ هذا الزَّمان!

24

هذا الولد مو طبيعي، بوش لَمْلَمُّو كيصيرْ!

قرأتُ وراجعتُ كلّ مناهج دراستي للمرحلة الإعداديّة والثَّانويّة في الهواء الطَّلق، واِجتزت المرحلة الإبدائيّة والإعداديّة والثَّانوية العامّة، القسم الأدبي وأنا لا أملك طاولة كتابة خشبيّة، لكتابة دروسي ووظائفي فوقها، وقمت بإعداد ومراجعة دروسي وواجباتي المدرسيّة خلال هذه المراحل الدِّراسيّة في غرفة مشتركة مع جميع أفراد أسرتي، لأنَّنا كنَّا نؤجّر بقيّة الغرف لكسب مبلغٍ بسيطٍ من المال لسدِّ بعض الحاجات الضّروريّة، وما كان دارجاً في تلك الأيّام أن يُخصَّص لطالب فقير وابن فلاح بسيط، غرفة مستقلّة وطاولة وكرسي يجلس عليه بشكل مريح ويحضِّر وظائفه ودروسه، لهذا كنتُ أقرأ دروسي في المنزل دائماً وأنا أجلسُ على دوشكاية صغيرة وبطانيّات حول المدفأة أيَّام الشِّتاء، أو أقرأ أمام باب المنزل في بدايات الرَّبيع وكنتُ آخذ اِمتدادي بفرحٍ كبير وأنا أقرأ دروسي وأحضِّر للاِمتحانات في براري ديريك الفسيحة أيَّام الرَّبيع والصَّيف.

وفي الشِّتاء كنت أذهب أحياناً إلى المدارس بعد الدَّوام وأقرأ في كوريدورات المدارس، وهناك كنت ألتقي مع بعض الطُّلاب الَّذين هم على شاكلتي، ليس لديهم غرف مستقلّة يقرؤون دروسهم فيها.

وقد سبَّبَت لي هذه الطّريقة في مراجعة دروسي لاحقاً، مشكلةً كبيرة في المرحلة الجامعيّة، لأنّني ما كنتُ أستطيع أن أحضِّر دروسي الحفظيّة وأنا أجلسُ على كرسي بجانب طاولة، كنت أستوعب ما أقرأه بشكل أفضل عندما أسيرُ في البرّيّة أو أسير في الحوش أو في كوريدورات المدارس، لأنّني كنت أقرأ بصوتٍ مسموع، وهذا الصَّوت المسموع كان يرسّخ الجملة في ذهني بعد تكرارها، وقد كانت طريقة حفظ الدُّروس غيباً أو فهماً، لكن أغلب الأحيان كنت أحفظ دروسي غيباً عن ظهر القلب أو أفهمها بشكل

عام وأحفظ التَّعدادات والبنود الرّئيسيّة وأفهم مضمون الفقرات المتعلّقة بالعناوين الفرعيّة فهماً فقط.

أضحك من أعماق قلبي، عندما أتذكَّر مواقف طريفة حصلت مع والدي فيما كنتُ أحضِّر دروسي، يقفز الآن إلى ذهني موقفٌ طريف للغاية، كأنّه حدث منذ أيام. كان الوقت عصراً، أمسكت كتاب الإنكليزي الخاص بنصوص القراءة والشِّعر، كي أحضِّر عن ظهر القلب، قصيدة "تذكَّرَني" للشاعرة كريستينا روسيتي، لمنهاج الصَّف الثَّالث الثَّانوي الأدبي.

Christina Rossetti

مطلعها،

Remember me when I am gone away,

Gone far away into the silent land;

When you can no more hold me by the hand

... ...

تذكَّرني عندما أرحلُ بعيداً

بعيداً جدَّاً إلى الأرض الصَّامتة

حيث لا تستطيع بعدئذٍ أن تلمسني باليد

... ...

كنتُ مولعاً جدَّاً بمادّة اللُّغة الإنكليزيّة، والفلسفة واللُّغة العربيّة! لهذا اخترت الفرع الأدبي، وفيما كنت أردِّد أبيات القصيدة باللُّغة الإنكليزيّة وبصوتٍ مسموع وبإيقاع شعري، سمعتُ والدي يقول لأمّي بهدوء هذا الولد "مو طبيعي، بوشْ لملمُّو كيصير، وبُوشْ كيقلّق راسو، يكونْ وما يكونْ كوصار فيو شي"! أي هذا الولد غير طبيعي، أنّه "يلملم" أي يقول كلاماً غير مفهوم، ويحرّك رأسه كثيراً، على الأرجح حصل له مكروه ما ولا بدَّ أن يرتاح.

قالت أمِّي له، يا صامو الولد "عم يقرا دروسو، أصلاً نحني مو نعرف أشْ كيحكي"! أي الولد يدرس دروسه ولا نعرف ماذا يقول؟! اتركه بحاله ..

تركتُ الوالد يقول ما يقوله على راحته، وخطَّطْتُ أن أنصبَ له كميناً طريفـاً في أقـرب فرصة، كي أبيّن له أنَّني ما كنت أعمل "لَمْلَمَّاً" ولا هلوسةً!

دارت الأيّام وإذ بي في إحدى ليالي الأحد، أحضر الفيلم الأجنبي عبر التّلفزيون السُّوري، كان الفيلم كوبوي أميريكي من العيار الثّقيل في المطاحنـات والتَّحـدِّيات، ووالـدي مـن طبعـه مشاهدة هكذا أفلام فيها أحصنة وأبقار ومسدَّسات وتهديدات أبطال الفيلم لبعـضهم بعـضاً، ويحب مشاهدة الطَّبيعة وقطعان الأبقار، فهمست في سرِّي اليوم يومك يا صبري!

خرجتُ بسرعة من غرفتي (الّتي كانت بالأساس غرفة أخي الكبير، كنّا قد جهّزناهـا لـه كي يتزوّج فيها بعد اِمتحانات الثَّانوية وقد كان في حينها في مرحلة الخطوبة، كنتُ أحضر فيهـا أحياناً بعض الأفلام وأسمع الأخبار)، وذهبت إلى غرفة والديّ وقلت للوالد بابـا اللــه يخلّيـك تعال وساعدني في ترجمة فيلم تركي أحبُّه كثيراً!

كان والدي يجيد التّركيّة نوعاً ما، لأنّه من جذور سريانيّة تركيّة أصلاً وقد خدم الجيش التُّركي قرابة سنة وشهرين، ثمَّ شكّل فراراً من الجيش التُّركي في ثلاثينيّات القرن الماضي والتحـق بأمِّي وعمِّي وجدَّتي الَّذين كانوا قد عبروا الحدود السّوريّة قاصدين ديريك للعيشِ والاِستقرارِ فيها.

سألته كيف لغتك التُّركيّة بابا؟

أجابني، كويسة.

يعني تخلّص حالك بالتّركي.

أي أي أخلّص حالي.

رائع، تفضَّل بابا جوّة، بدأ هذا الفيلم التّركي منذ لحظات، وأريد منك أن تترجم لي ماذا يقول هذا البطل للبطل الآخر الَّذي يتحدّاه؟!

جلس والدي على الصُّوفاية وبدأ يشاهد الفيلم بشغفٍ وفرحٍ، ثمَّ شـجّع البطـل الّـذي يمتطي حصاناً بنّياً، وخلفه بعض الفرسان أيضاً.

ماذا قال هذا البطل الَّذي يركب حصاناً لذلك الَّذي وقف في طريقه؟

تمعَّن والدي بكلِّ اِهتمام، قائلاً: هذا الفارس القوي عـم يقـول لـذلك الفـارس الواقـف أمامه، ابتعدْ عن طريقي وإلَّا سأفرّغ رصاص مسدسي في رأسك!

طيّب، ماذا ردَّ عليه الفارس الواقف أمامه على رجليه؟

نظر إلى المشهد باِهتمام وكأنّه مخرج الفيلم، ثمَّ قال: هذا الفارس يقـول مـا راح أقـوم من طريقك، وكتير ناس متلك شفنا، وتحكي كلمة زائدة راح أفضّي رصاص مـسدسي في صـدرك وأرميك أرضاً!

ما خاف منّو الفارس المترجّل؟

لا، ما خاف منّو وقال له، روح روح من قدّامي ولا تخلّيني أبخش مخّك!

طيّب كيف تعرف اِتْرَجم كل هذا الحكي بابا؟

بوش أفلام هيـك حظرتـو وبعـرف أش كيقلـون! أي حـضرت الكثـير مـن هـذه الأفـلام وأعرف ماذا يقولون؟!

على ما يبدو يا بابا لغتك التُّركية تتحسَّن عاماً بعد عام!

أكيد، راح تتحسّن طالما أحضر هيك أفلام!

تعرفْ في أشْ لغة لَمْلَمِّنْ كيصير هؤلاء الفرسان؟

في أشْ لغة؟

لمْلمِّنْ كيصير في الإنكليزي، عم يحكون طول الوقت إنكليزي!

نظر والدي نحوي وقال، "أش كُوتْقُلّ": ماذا تقول؟!

أقول يا بابا هدول عم يحكوا إنكليزي، ما حكوا كلمة واحدة بالتُّركي!

ضحكَ والدي من أعماق قلبه، وبكلِّ روح رياضيّة وطرافة قال: "والـلـه سرقـت فينـي الخُرْجكي"، أي والـلـه عَمَلْتَ بي مقلباً محترماً!

مشان تاني مرّة ما تقول لأمّي هذا الولد بوش لملمُّو كيصير وعقلو كُوخَـفّ! كي لا تقـول لأمِّي مرَّة أخرى عندما أراجع دروسي أن هذا الولد "يُلملم" كلاماً مبهماً وخفَّ عقله.

لا لا، سوف لن أقول عنك شيئاً، اقرأ دروسك وأعمل "لملمَّكَ" كما تريد، طالما دروسك هي عبارة عن لغة "مُلمْلمَة" كما "لململوا" فرسان هذا الفيلم.

ضحكنا سويةً، ثمَّ ذهب إلى أمّي، وعدْت، وتلصصْتُ عليه من خلف الباب، وإذ به يقول لأمّي تعرفي هذا الولد حطني في الخفّكة أي المصيدة!

أشْ خفّكة بومو، وليش حطّك في الخفِّكة؟ بأيّة مصيدة وضعك، ولماذا؟

صدقي يا سيدة، متل ما فهمت منّو "شال حيفو"! أراد أن يعيد اِعتباره!

يشيل حيفو فيك، ليش أشْ عملتْ فيو مشان يشيل حيفو فيك؟

تتذكَّري لمَّا قلت لك هذا الولد فيو شي، بوش كيقلِّق راسو ولملمُّو كيصير لازم يرتاح شوي؟

أي أتذكَّر.

يبدو أنّه كان يسمعنا، لهذا عمل بي مقلباً محترماً، ردَّاً على ذلك الموقف.

أشْ عمل فيك؟

قال لي بابا تعال وترجم لي هذا الفيلم التُّركي. وذهبتُ فعلاً وترجمت له الفيلم، وبعد قليل قال لي أنَّ هذا الفيلم ما هو تركي، هو فيلم إنكليزي و"لملمّن" كيصير بالإنكليزي!

ضحكتْ أمّي هي الأخرى وقالت له مليح يسوي فيك، وهذا حقّك ومستحقّك ما وصلك، ومشان تاني مرَّة ما تحكي عليو هيك حكي، ما قلتولك عم يقرا دروسو ما صدّقتني.

ضحك والدي وقال، فعلاً ما "كَيْسَوِيْ لملمُّو"، كان يقرأ دروسه! فعلاً ما كان "يلملم" أو يهلوسُ بل كان يقرأ دروسه!

25. نجاحي في الثَّانوية وأنا غائص في جبلات الطِّين،

التحاقي بالصَّف الخاص كأقصر طريق لتأمين لقمة الخبز

لم يقلقني يوماً ما شظف العيش الّذي مرَرْت به، بل شعرت أنّه يطهّرني من تخبُّطات وانحدارات هذا الزّمان، عانقتني طويلاً سنابل القمح وأعادت إليَّ رحيق بهجة الحياة، كم كنتُ أفرح وأشعر بمتعة لذيذة عندما أتناول حبيبات الفريكة الخضراء من باقات سنابل والدي الّتي كان يزرعها بفرحٍ عميق، وبعد أن أتناول الفريكة الخضراء، أشقُّ طريقي نحو حقول الحمّص الأخضر، ألملم باقات الحمّص، آكل حبّات الحمّص بشهيّة مفتوحة، كأنّها مفتاح العبور إلى أبراجِ القصور، مع أنّني لم أحلم يوماً بالقصور، حتّى أنّها ما كانت تلفت انتباهي، شاقّاً طريقي نحو كرمنا الواقع إلى الشَّرق من مار يعقوب، آكل أشهى "الأرنوب والحرصم" وآكل العنب عندما ينضج بلذّة غامرة، كنت أشعر في حينها أنّني من أغنى أغنياء الكون، وما كان شظف العيش يحبطني اِطلاقاً، بل كان يعيد إليَّ نكهة الطُّموح ولذّة البحث عن الأجمل والأبهى في الحياة.

حلمتُ في ليلة قمراء، أنّني أطير، أحلّق عالياً، فرحٌ عميق غمرني في أعماق الحلم، في اليوم التّالي، وجدت نفسي بين جبلاتِ الطِّين، برفقة شكري ابن عمي، نشتغل مع عمّي يوسف شلو في بناء بيت كورية المشروبات، أبو بول المعروف بخفّة ظلّه. كنتُ نحيفاً للغاية، جسمي غير مقطوع شغل كما يُقال لهكذا عمل لا يطيقه سوى العمَّال ذوي البنية القويّة، ولكن ظروف الحياة دفعتني للعمل، راغباً أن أحصل على بعض المصاريف الخفيفة لمتابعة دراساتي بعد نجاحي من الثَّانوية الّتي تقدّمت إليها منذ أكثر من شهر، وفيما كنّا نعمل في إعداد البلوك وعدّة البناء، كنت أحضّر جبلة الطِّين، أخلط الماء بالإسمنت، وأحرّكه قبل أن يجفّ، سمعت صوتاً لأحد الطّلّاب في مكبّرات الصَّوت يقول، أيّها الأحبّة الكرام، نلفت عنايتكم إلى أنّنا سنقرأ على مسامعكم نتائج اِمتحانات

البكالوريا الأدبيّة، نرغب إليكم الاِستماع إلينا لأنّ نتائج الاِمتحانات قد صدرت وسوف نقرَؤها عليكم بعد قليل.

فرحتُ عندما سمعت هذا النِّداء، وهذا التَّنويه، فقلت لعمّي يوسف بعد قليل سيقرؤون أسماء النّاجحين والنَّاجحات، وحبذا لو توقّفنا عن العمل ونسمع إلى النّتائج لأسمع نتيجتي النِّهائيّة في الاِمتحان ثمَّ نتابع عملنا كي يصبح للعمل نكهة من نوعٍ آخر!

نأخذ اِستراحة، أجاب عمِّي.

حالما سمعَتْ لميس ابنة كوريّة صوتي فيما كنت أقول لعمّي، حبذا لو نسمع إلى النّتائج بعد قليل لأسمع نتيجتي النّهائيّة، تقدّمت نحوي وسألتني.

هل فعلاً تقدّمت إلى اِمتحانات البكالوريا الأدبيّة هذه السّنة وتنتظر نتائج الاِمتحان؟

اِي نعم، تقدّمت لاِمتحان البكالوريا هذا العام.

هل عندك أمل في النّجاح؟

لا تقولي هل عندك أمل في النّجاح، بل قلي كم سيكون معدّلك، لأنَّ النَّجاح مضمون مئة بالمئة! لأنّني لا أؤمن في هذه الأحوال بالاِعتماد على الأمل، بقدر ما أؤمن بما زرعته، وبما سأحصده بعد قليل.

ماذا تقصد؟

أقصد أنّ نتيجتي النّهائيّة يا لميس هي النَّجاح وبدون أي شك، ولا أعتمد على الأمل في النّجاح، لأنَّ ما كتبته يعني لي النَّجاح لا غير!

يا سلام، واثق من نفسك كتير.

نعم واثق من نفسي كثيراً، مثلما واثق من أنَّ جبلةَ الطِّين الّتي أمامي هي جبلة طين من صنع يدي، هكذا أرى نجاحي أمامي، واضحاً وضوح جبلة الطِّين!

ضحكت لميس عندما وجدتني أشبّه ضمان نجاحي ووضوحه بوضوح جبلة الطّين الَّتي أمامي!

لحظات وسيقرأ أحد الطُّلاب النّتائج، ستسمعين بأذنيك اِسمي مردَّداً بين أسماء النَّاجحين وبعلامات محصورة ما بين كذا وكذا! سأرمي بنفسي بين جبلة الطِّين لو لم أكُنْ من النّاجحين وبتفوّق!

أحسدك على ثقتك العمياء بنفسك، أراك واثقاً جدَّاً من النّجاح، وتحدّد علاماتك أيضاً، سنسمع بعد قليل هل ستتحقَّق تكهُّناتكَ القاطعة!

ولو يا لميس نحن لا نفهم فقط بإعداد جبلات الطِّين للبناء، ونقدِّم البلوك والحجر لعمّي، نفهم في الكثير من الأمور الأخرى أيضاً.

معقولة تنجح يا صبري.

ليش مو معقولة، وليش أنتِ مستغربة لو أنجح، ومستكثرة عليّ النّجاح!

معقولة واحد مقدّم بكالوريا، وينتظر نتائجه وهو غائص في الطِّين في يوم صدور النّتائج، وهو يحضّر جبلة الطِّين للإعمار؟

أصلاً هذا الشّخص وهكذا شخص هو الَّذي ينجح وسينجح، أين الغلط، وأين العائق لطريق النّجاح، بالعكس أنا أشْتمُّ نجاحي من خلال جبلة الطّين، والعمل عندي هو مقدّس، يعطيني إحساساً أنّي موجود وأنتج شيئاً ما!

شو قصّتك مركّز على جبلة الطّين، كأنّها طريقكَ إلى النّجاح، خلّينا بالنّتائج!

قلتُ لك يا عزيزتي نجاحي أراه ماثلاً أمامي مثل وضوح جبلة الطّين!

تعرفي لو تناقشي معي بعناد، سأخرّب جبلة الطِّين، سأقول لعمي عمّر حائط بيت أبو لميس معوج!

ضحكت لميس وقالت، إذاعمّره عمّك معوجاً، بابا ما راح يعطي لكم حق الإعمار، لأنّه معوج!

قصدك سيعتبرنا راسبين في الإعمار!

بالضّبط.

لحظة، سمعتُ صوت أحد الطُّلاب عبر مكبّر الصَّوت من ثانوية يوسف العظمة يقـول، نقرأ الآن على مسامعكم أسماء الطّلاب والطّالبات النَّـاجحين والنّاجحـات في الثَّانويـة العامّـة، القسم الأدبي.

انتبهي لميس، اسمي الكامل صبري صاموئيل يوسف! ركّـزي ستـسمعينه بأذنيـك بعـد قليل وعلامتي ما بين كذا وكذا!

ضحكت لميس وقالت، قتلني هذا بتحديد علاماته، لك أنا بدّي أسمع إسمكَ ناجحاً، ما أريد أعرف العلامات الآن!

بدأ أحد الطُّلاب يقرأ أسماء النَّاجحين والنَّاجحـات بكـلِّ هـدوء وبـصوتٍ عـالٍ، مـردِّداً الاسم مرّتين، مع ذكر العلامة، وإذا به يقول الطّالب صبري يوسف، العلامة.....، مـن النّـاجحين بتفوّق! وإذ بلميس تتوجّه نحوي وتقول لَكْ صبري نجحت، نجحت بتفوّق ثمّ فتحـت يـديها وعانقتني وأنا في كامل طيني، فقلت لها، لَكْ يخرب بيتك صرْتِ كلياتِك طين.

لكْ خلّي أصير طين المهم نجحت يا صبري!

فرَحَتْ لميس وكأنّها هي الّتي نجحت، ثمَّ ركضَتْ نحـو البيـت وخـبّرت والـدها وأمّهـا بلهفة، بابا بابا تخيّل هذا العامل صبري اِلّي يشتغل مع عمّو يوسف نجح بالبكالوريا.

ليش هادا كان طالب بكالوريا، اللـه وكيلك فكَّرتو عامل بناء!

اِي بابا هوَّة هلّا عامـل يـشتغل مـع عمّـو يوسـف، بـس كـان مقـدّم بكالوريـا ونجـح بعلامات جيّدة. تخيّل يا بابا قبل ما يقرأ أحد الطُّلاب النّتائج بدقائق غير على جبلة الطِّين مـا كان يحكي، تعرف هلكني من كتر ما حكى على جبلة الطِّين، توقّعت أنّه في البدايـة يمـزح عـلى أنّه تقدّم لاِمتحانات البكالوريا الأدبيّة عندما سمعته يقول لعمِّه لازم نـسمع نتـائج الاِمتحـان وأعرف كم هي علامتي.

تعرف بابا أشقد واثق هذا الإنسان من نفسه، أكثر من مرّة يعيد الكلام ويقول لي نعم أنا من النَّاجحين مثلما ترين جبلة الطِّين الَّتي أعدَدْتُها، هكذا أرى نجاحي.

لمّا قرؤوا إسمه توجّهت نحوه وهنّأته بكلِّ فرح، قال لي يخرب بيتك عبِّيتِ حالك طين، فقلت له خلّي أتعبّى طين، المهم نجحت يا صبري.

وليش سلّمتِ عليه بهذه الطّريقة.

بابا شي عجيب كان واثقاً من نجاحه، حبّيت كتير ثقته بنفسه وبتفوّقه! وفعلاً عندما قرأ إسمه أشار الَّذي يتلو النّتائج، نجح بتفوّق، ففرحت جدّاً كأنّني أنا الّتي نجحتُ!

لا يكون يا بنت ...

شوباك يا بابا أنتَ التَّاني رايح لبعيد!

ضحك وقال، والله يا بنتي بحسب ما أسع كلامك عنه، مفروض أروح لكتير بعيد.

ضحكت هي الأخرى وقالت شو ممكن نضيفهم بمناسبة النّجاح.

طولي بالك أحسن ما أروح كمان لبعيد!

فرح عمّي كثيراً وهنّأني، وكذلك هنّأني ابن عمي شكري، وجاء أبو لميس وأم لميس وقدّما التَّهاني لي ولعمِّي واشترت أم لميس علبة سكاكر ووزّعتها على أطفال الحيّ وبعض العابرين، والمهنّئين، ثمَّ قال أبو بول وهو نفسه أبو لميس، عندكم اِستراحة أبو أفرام بمناسبة نجاح صبري أفندي ودعوة على أكلة جبس مع جبن وخبز حار على مزاجكم.

قدّم لنا جبسة "كورطبان" كبيرة وطويلة، ثمَّ بدأ يكسرها، ويقسّمها حزوز حزوز، وقطّعتها لميس في صحون ووزّعتها علينا، وفيما كانت لميس تقترب منّي وتقدِّم لي صحن الجبس، كان أبو بول يغمزني ويشير إليها، وكأنّه يحرِّضني على الاِقتراب منها أكثر، فشعرت أنّه أب مختلف عن الكثير من آباء ديريك في ذلك الزّمان، وأعجبني موقفه، صحيح كان يقوم بهذه الإماءات بنوع من الدُّعابة، ولكنّه كان جدِّيّاً فيما إذا تقدَّمت نحو ما يدور في خلده! بينما أقصى ما كان يدور في خلدي، أن أنطلق من جبلة الطّين، متوجِّهاً نحو جبلات طينيّة أرحب، جبلات من نوعٍ آخر، نحو آفاقٍ الثَّقافة والعلم وكلّيّة الآداب، حيث كان حلمي أن ألتحق بدراسة الأدب الإنكليزي، لأنّني حصلت على المعدّل الأوَّل على دفعتي بهذه المادّة، وبعد مشاورات أسرويّة طينيّة مريرة، قرَّرت مضطرّاً أن ألتحقَ بالصَّف الخاص كأقرب طريق للقمة الخبز، لأخطِّط بعدها بكلِّ هدوء لمشوار العبور في ضفاف المستقبل لتحقيق طموحاتي الدِّراسيّة من أبوابها العريضة!

26

التحاقي بالصَّف الخاص كأقصر طريق لتأمين لقمة الخبز

عندما التحقتُ بالصّف الخاصّ وقدَّمت أوراقي للموظّف المسؤول عن اِستلامِ الأرواق، اِندهش الموظّف عندما شاهد علامة الإنكليزي، الفلسفة، اللُّغة العربيّة والمعدّل العام عالياً، وقال لي، يا أخي أنتَ أمرك غريب.

وليش أمري غريب؟

معدَّلك بمادّة اللُّغة الإنكليزيّة عالٍ جدّاً، وبالفلسفة واللّغة العربيّة، أنت مقبول بكل هذه الفروع في جامعة دمشق وحلب، وتستطيع من خلال معدَّلك العام أن تتابع دراساتك الجّامعيّة بأيِّ فرع آخر كالحقوق وغيره من التُّخصُّصات، وجايي تسجّل عندنا بالصَّف الخاص!

يعني معقول ما أعرف هذا الَّذي تقوله؟!

طيّب طالما تعرف، لماذا اِلتحقتَ بالصّف الخاص؟

للحصول على لقمة الخبز بسرعة البرق يا أستاذ!

ضحك لردّي ثمّ اِبتسم لي وقال العفو، لم أقصد أن أجرحك! و...

أعرف قصدك، أنتَ مندهش لا أكثر على التحاقي بالصَّف الخاص وعندي كلّ هذه المعدّلات في بعض مواد التَّخصُّص، لكن ليس باليدِّ حيلة، لا تقلق، هذه مرحلة عابرة سيتلوها مراحل أكثر رحابةً لمتابعة دراساتي بعد الصَّف الخاص!

هزّ رأسه باِحترام، وقال بالتَّوفيق والنّجاحات الدَّائمة في كلِّ ما تطرقه!

الصَّف الخاص هو محطّة أوليّة، للاِنطلاق نحو الأهداف البعيدة.

نعم، أتفهّمك، تبدو طموحاً ومصرّاً على تحقيق الأهداف المرسومة في ذهنك.

انطباعك صحيح يا أستاذ.

درستُ الصَّف الخاص في مدينة الحسكة، بضعة شهور فقط، تخلَّلها الكثير من العطل، كأعياد الميلاد وعيد الفصح وأعياد أخرى وأعياد وطنيّة.

كان المنهاج كثيفاً ويتضمّن الكثير الكثير من المواد، وبرأيي أغلب المواد كانت حشو معلومات ولا تتعلّق بكيفيّة تحضير الدُّروس، لهذا كان من الأجدى حذف أكثر من نصف المنهاج والتَّركيز على المواد الَّتي تعلّمنا كيف نعلّم الأطفال أصول التَّدريس، وتأكيداً على صواب هذا الرَّأي، فإنّ دورتنا كانت آخر دورة للصف الخاصّ نظام السَّنة الواحدة، وبعد دورتنا أصبح الصَّف الخاص نظام السَّنتين، أصبحَ كمعهد متوسّط، نظراً لكثرة المواد الَّتي يتضمّنها.

تتراءى أمامي الآن قامات الزّميلات والزُّملاء مثل حلمٍ جميل يغفو فوق طيّات الغمام، وأتذكّر بعض النّقاشات الّتي كانت تدور بيننا في الاِستراحات والرّحلات، وأثناء تقديم دروس "الاستاج" التَّدريبيّة، أتذكّر في إحدى تقييمات درس من الدُّروس الّتي قدّمتها على تلاميذ الصَّف الثّالث، بعد أن قدَّمت الدَّرس، أثناء النّقاش التَّقييمي، وجّهت لي الزَّميلة منى لولي ملاحظة نقديّة، لكنِّي اعتبرت ملاحظتها رائعة جدّاً لأنّها خلقت فكاهة في النّقاش.

قالت، يا صبري أثناء الشّرح طوال الوقت كنتَ مبتسماً وتقريباً كنتَ تضحك مع الطّالبات.

عندك فقط هذه الملاحظة.

بس هذه الملاحظة!

دافعتُ على نفسي مبرّراً اِبتساماتي في الدَّرس التَّدريبي قائلاً، طيّب هل تريدين منِّي أنْ أتجهّم في وجه التّلاميذ أو تريدينني أن أبكي بدلاً من أن أكون مبتسماً وودوداً مع التّلاميذ؟!

فضحك كلّ الزُّملاء والزَّميلات بما فيهم منى نفسها والمدرّس المشرف على التّدريب، ثمَّ قالت مُنى أفحمتني!

أجبتها، أنتِ يا عيني جبتِ القدُّوم لرأسك! فضحكَ الزُّملاء والزَّميلات من جديد.

نظر إليّ المدرّس المشرف على التّقييم، وقال تعرف أستاذ، ..

نعم، تفضّل، أسمعك.

أخشى أن أقدّم لك ملاحظة ما، فتردُّ عليَّ كما ردّيت على منى، فأفضل شيء أن أقول لك درسك كان رائعاً حتَّى ولو تخلَّله اِبتسامات في منتهى الوداد مع التَّلاميذ!

فضحك الزُّملاء والزُّميلات مرة أخرى وضحكتُ من أعماقي، وقلت للمدرِّس، تعرف أستاذ.

فقال نعم.

الآن أنتَ كبستني وأخذت حيف منى!

ضحكوا من جديد وقال، والله يا أستاذ ما نتخّلص منّك، نصفك ما نخلّص وننقدك ما نخلّص، ردودك قويّة وفكاهيّة وجاهزة!

أليس أفضل من أن يكون نقاشنا جافّاً ومتجهّماً!

صدّق معك حق، نعم للبسمة ولا للتجهُّم!

تمرُّ الأيّام والشُّهور والسُّنون وتبقى هذه الذّكريات غافية بين مرافئ الذّاكرة المحلّقة فوق هلالات الغمام، وتتراقص على رحابِ مويجات الذَّاكرة، ففي صباح أحد الأيّام، فيما كان الأستاذ موسى حسين، مدرّس أصول التَّربية، يشرح الدّرس، وكان تقريباً يحفظ الدَّرس غيباً، وإذ به يمسكني بالجُرم المشهود، قائلاً:

شو عم تعمل، انتبه عليّ، عم أشرح الدَّرس.

أنا أكثر من ينتبه عليك يا أستاذ!

كيف عم تنتبه علي، وشايفك عم تشخبط وتكتب بالإنكليزي من أوّل الدّرس!

أنا عم أشخبط؟!!!!

اِيه أنتَ عم تشخبط، لكان شو عم تعمل؟!

يا أستاذ عم ألخّص شو عم تشرح بالإنكليزي!

شو قلت، عم تلخّص شرحي بالإنكليزي؟

اِي نعم، تفضّل! هل تريد أن أشرح لك ماذا قلتَ بالعربي وما يقابله بالإنكليزي؟

طيِّب ليش ما تكتب بالعربي، مو أحسن لك!

لا مو أحسن لي!

وليش مو أحسن لك!

لأنَّني أريد أن أقوّي إنكليزيّتي وأحافظ عليها، وعربيّتي قويّة ولا تحتاج للتقوية!

ضحك وقال، تقوِّي إنكليزيّتك في الصَّف الخاص!

ولِمَ لا، شو فيه الصَّف الخاص!

طيِّب طالما أنت مغرم باللُّغة الإنكليزيّة إلى هذا الحدّ لماذا لم تتابع أدب إنكليزي وتكتب محاضراتك على مزاجك بالإنكليزي؟!

عم تسخر منّي!

لا واللـه ما عم أسخر منّك!

تعرف يا أستاذ معدّلي باللُّغة الإنكليزيّة كان الأوّل على دفعتي في المالكيّة! وكنت مقبول بالمادّة وبالمجموع الالتحاق بقسم اللُّغة الإنكليزيّة أو بأيٍّ فرعٍ من فروع كلّيات الآداب في جامعات سوريّة!

لماذا إذاً التحقتَ بالصّفِّ الخاص!

لأنّه، كما قلتُ لغيرك، هو أقرب طريق إلى لقمة الخبز!

عندما وصل إلى لقمة الخبز، توقّف عندها وسحب تساؤلاته، لأنّه شعر من نبرة صوتي أنّني سأصعّد معه متفرّعات الحوار!

تابع الدَّرس وتابعت تلخيص رؤوس أقلام بالإنكليزيّة، وما كان هناك أيّة ضرورة للتلخيص بأيّةِ لغة لأنَّ المقرّر كان متوفّراً عندنا!

أثناء الفرصة، جاءت الزَّميلة منتهى قائمقام، تسألني.

عن جد صبري كنت الأوَّل في دفعتك وكنت مغرم بمتابعة دراساتك ولكن ... وتوقَّفت عن السُّؤال!

إي، فعلاً، وسأتابع يوماً ما، الآن أنا بصدد تأمين لقمة الخبز، والحصول على شهادة ما فوق محو الأمّية بقليل!

ضحكت منتهى وأنا أقول ما فوق محو الأمِّيّة بقليل!

صدّقيني، الصّف الخاص، بالنّسبة لطموحاتي بمثابة محو أمّيّة!

طيّب كيف وضعكم.

وضعنا عادي، مثل وضع أي فقير من فقراء محافظتنا!

تمرُّ السُّنون فوق جسد العمر، ولا نملك سوى أوجاعنا الضَّامرة في أعماقنا الخفيّة.

***

أشعر أحياناً بتدفُّقات حلميّة تغمرني، لازمني هذا الشُّعور مراراً، أريد أن أشكرَ من أعماق قلبي، مَنْ أبدع حبر الكتابة، أشكر مَن أبدع حرف الكتابة، أشكر مَنْ دوّن أبجديّات الكتابة، أشكر كلّ مَن أبدع كلمات الكتابة، أشكر والدي لأنّه مارس العشق في ليةٍ قمراء مع أمّي ثمَّ تبرعمتُ حَبقاً في خميلةِ الحياة، قمّطتني أمِّي بين أهدابِ القصيدة ووشَّحتني بعشقٍ فوق جفونِ الكتابة، فتلقَّفتني الحياة بكلِّ فرحٍ.

كبرتُ على هسيس الحنين، ثمَّ اِلتقيت مع وهجِ الأبجديات عند مفارق الحنين، عند سطوعِ هلالاتِ الضّياءِ، أعبر محطّات العمر، تاركاً كلَّ الأحبّة خلف البحار.

تشمخ قامتها أمامي الآن، ترتسم بكلّ حيويَّتها وحبورها ونضارتها أمامي، أتذكّر كيف نظرَتْ إلى عينيّ، هواجس كثيرة راودها، هل قرأتْ كيف أرى نضارة وجهها وروحها ورشاقة كيانها وهي تحلّق مثل فراشة في سماء صباحاتي الغارقة في عرينِ الطّموح على إيقاعِ هبوبِ مساراتِ الاِنشطار!

كم كنتُ أحبُّ نضارتها، حضورها، عفويَّتها السَّارحة مثل قامات السّنابل، كينونة في منتهى الرّقّة والشَّفافيّة، أشبه بوردة مندلقة من أغصان حنين الصَّباح، بهجةٌ غامرة كانت تنتابني كلّما أراها .. لا أعلم لماذا تزدهي أمامي الآن قامتها بكلِّ عنفوانها وبهائها الأخّاذ، مندهشٌ على بقائها الشَّامخ في مسارات الذّاكرة، بعد كلِّ هذه السَّنوات، غريبةٌ مشاعر البشر، غريبة الصَّباحات وأحلام اليقظة، كيف فاتني عبر كلّ هذه السَّنوات أن

أَلملمَ من خاصرة الزّمن بهجة سردٍ أو شهقة شعرٍ من عوالم فراشة حطَّت يوماً فوق تيجان الرّوح دون أن تدري كيفيّة انبعاث وميضها بين تيجان القلب المنحازة نحو وميض القصيدة، كيف ظلّت غافية كلّ هذه السّنين بين مروج الذَّاكرة الحنينيّة البعيدة، كيف تتحمّل ذاكرتنا كلّ هذا الارتحال نحو هلالات الرُّوح، كيف تتحمّل قلوبنا كلّ هذه الانبعاجات الفرحيَّة الضَّامرة؟!

هروبٌ نحو متاهات الحلم الغافي فوق مرامي الحنين، تنبلج أفراحنا في منعطفات مسارات روحنا كأنّها رحلة مآسٍ غارقة في مغائر الأنين، لماذا تضاءلت فسحة الأفراح في دروب القصيدة الَّتي تلألأت فوق جفون الرُّوح سنيناً طويلة، ثمّة تساؤلات تسطع فوق وجنة القلب، تعجز الإجابة عنها مخيال أي روائي، ثمّة دموع طافحة نحو مسار الحلم البعيد، غير قادرة هواجس القصيدة ولا هواجس السَّرد بكلِّ تدفُّقاته أن تجني هذه الجنان الهاربة من صباحات الأزمنة المضمّخة فوق تلال الرُّوح، وحدها الكتابة استطاعت أن تلملمَ اِنكساراتي وتنقذني من لظى هذا الزَّمان، من تفاقمِ اشتعالاتِ ذلك الزَّمان، من اِنشراخات الفرح المعتّق بغربة لا تخطر على بال!

عجباً أرى، كم كنّا وما زلنا غرباء عن أقرب المقرَّبين منَّا، غرباء عن ذواتنا، غرباء عن أحلامنا، غرباء عن هواجسنا الحميمة، غرباء عن مساءاتنا القمراء، غرباء عن جموحاتنا الهاربة نحو ظلال حوشنا العتيق، غرباء عن العيون الكحيلة المنسابة ألقاً، غرباء عن لغة الفرح والحنين والعناق العميق، غرباء عن الحيِّ، عن المدائن الَّتي أنجبتنا للحياة، غرباء عن أهلنا وخلَّاننا وأصدقائنا وصديقاتنا وعن تجلِّيات ابتهالات الرُّوح!

وحده حرفي اِحتضن أوجاعي على مدى كلِّ هذه السِّنين، لملمني من زمهرير الحياة الَّتي هرست بكلِّ ثقلها وميض الأزمنة المسربلة باخضرار أغصان الزَّيتون، وحده حرفي أنقذني من ضجري المفخّخ بدكنة الاِسوداد المتوغّل في أعماق سراديب شفير هذا الزّمان، وحده حرفي توّجني باِخضرار بسمة الرُّوح على مدى غربة معتّقة بلظى شفيرِ الاِشتعال.

وحده حرفي أعاد إليَّ حفاوات السِّنين الغائصة بالتِّيه، تعال يا قلمي وانتشلني من تدفُّقات أوجاعِ الحنين، من هول الشَّوق الجّاثم فوق خدود الرُّوح، حيث دموع الأحبّة

تنتظر صدورنا الفسيحة لتخفِّف الأسى المرصرص فوق صدرنا المضرّج بخيوطِ الـشَّوقِ التوّاقـة إلى حبورِ الاِحتضان!

لهذا كلُّه، يأخذ الأصدقاء وتأخذُ الصَّديقات مساحة طيّبة من حفـاوة الـذَّاكرة، ترفـرف أمامي قامات الأصدقاء والـصَّديقات، أتـذكَّر زميلـةً مـن نكهـة التفّـاح، كـان عنـدها حركـة في شفتيها، تمصُّ شفتيها من الجَّانبين، فتبدو شفتيها مثل بـرعمَين فـوق بعـضهما، فنبّهتهـا بينـي وبينها قائلاً، أنتِ ياعزيزتي في منتهى الشَّفافيّة، وعندك حركة أحياناً تقومين بها بشكلٍ عفـوي، تمصّين شفتيك على الشّكل التَّالي، وأدّيت حركتها كي تراني كيف أراها، فأرجوكِ لا تفعـلي هـذه الحركة مرَّة أخرى!

هل تزعجكَ الحركة؟

الحركة لا تزعجني، لكنِّي لا أريدُ أن تظهري بهذه الحركة!

لماذا لا تريد؟

لأنّني أحبُّ أن أراكِ بدون هذه الحركة!

لم تُجِبْ عن سؤالي؟

قلت لك، لأنّني أحبُّ أن أراك بأبهى قيافتك، ولا أعلم لماذا لا أرتاح لهذه الحركـة، ربّمـا لأنّني أغارُ عليكِ!

تغارُ عليَّ؟!

نعم أغارُ عليك كزميلة لا أكثر!

ضحكتْ بغنجٍ وغمزتني ببراءةٍ لذيذة، ثمَّ قالت فقط كزميلة؟ ..

كم بدت عينها الَّتي غمزتني جميلة، لماذا لم أعانقها عناقاً أزليّاً؟! نظـرت إليهـا بابتهـاجٍ عميق، وأكتفيت أن أنظر إلى عينيها، أنتظر ردّها حول تساؤلي!

أجابتني، أعدك يا صبري أنّني سأحاول أن أتجنّب هذه الحركة!

شكراً، العفو لتدخُّلي في موضوع خاص جدّاً!

أنا أشكرك على ملاحظتكَ.

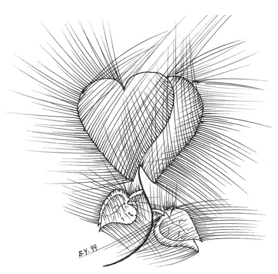
أيّة ملاحظة؟

حول حركة الشَّفتين!

هي ليست ملاحظة يا عزيزتي، هي غيرة لا أكثر!

ضحكت، وضحكت أنا الآخر، تضامناً مع بهجة الضّحك.

ترتسم أمامي الآن هذه الذّكريات واللّحظات الجميلة المسترخية فوق قبّة الرُّوح، بكلِّ تفاصيلها البديعة وكأنّني هناك، خارجاً من قاعة الصَّف منذ ساعات!



27

تأمُّلات جانحة نحوَ مروج الذّاكرة البعيدة

هناك أصدقاء، لم أنسَهم أبداً، الصَّديق الغالي جان يطرون، زميل دراسة وأصبح صـديقاً بكلّ معنى الكلمـة، وأصبحتُ صـديقاً لكـلِّ العائلـة، عائلـة راقيـة كـم كنـتُ أشـعر بـالفرح والحميميّة أثناء زياراتي للعائلة، شعور بأنّني في أحضان أسرتي، أنا المعروف بقرويَّتي وعفويّتي وفكاهاتي، تتراءى أمامي الزِّيارات الَّتي كنتُ أقوم بها لبيت جـان يطـرون، تـستقبلني والدتـه بحنان كبير وبسمة دافئة، شعور بالفرح كان يغمرني عندما كانوا يتلملمون حولي ببشاشة غير متكلِّفة، جميلةٌ هي الحياة عنـدما تـشعر أنّـكَ أحـد أفـراد الأسرة في أسرة جديـدة، لـك فيهـا صديق أو صديقة، الحياة بـسمة عطـاءٍ، ومـصداقية شـعورٍ! أيـن أنـتَ يـا جـان الآن كي أزرع شوقي بين أحضانكم الفسيحة وأبكي فرحاً من بهجة الحنين إلى أيَّـامٍ كانـت وسـتبقى مرفرفـة فوق مروجِ الرُّوح، شوقٌ عميق إليك يا جان وإلى كلِّ عائلتك وزوجتك الغاليـة الزَّميلـة نظـيرة إسيو، ولأخيك أديب، ومروان وصبحي أبو زكي، وبقيّة أخواتك، والدٌ حنون وعائلة كادحة عـلى شاكلة الفلّاحين المعجونين بعبق الحنطة.

مرّت أيّام الصَّف الخاص بسرعة، والتَّحضير للدروس والاِستعدادات للاِمتحان أخذ وقتـاً من برامجنا، قفز إلى ذهني الآن موعد مع الزَّميل عبدالبصير الحسيني وغالب عبـدو ومحمـد رمضان، والتقيت في طريقي مع الزّميل جورج يعقوب، ذهبت إلى موعدي في الوقت المحدَّد، أجابني عبدالبصير مواعيدك أوروبّيّة.

أنا أوروبي وأحترم المواعيد جدَّاً، مَنْ يدري، ربّما أصبح أوروبيّاً يوماً ما.

لمَ لا، الاِستعدادات موجودة، قال عبدالبصير، ثمَ ضحكنا وتجاذبنـا أطـراف الحـديث في عدّة مواضيع، كأنّنا نعرف بعـضنا منـذ سـنين، وفـيما كنّـا نتنـاقش هـذه الموضـوعات باللُّغـة

الكرديّة، وإذ بعبدالبصير يقول لغالب ومحمد انتبها هاااااااا بنوع من الدُّعابـة، صـبري لـيس كرديًّاً!

نظر غالب نحوي وقال لعبدالبصير، شو عم تحكي يا عبد.

أجابه عبدالبصير مثلما سمعت.

قال غالب، ولكنّ صبري يتكلّم الكرديّة أحسّن منّي!

أجابه عبدالبصير، وأحسن منّي أيضاً!

ضحكتُ وقلت، يبدو أنّكما لم تتـدرَّبوا عـلى إتقـان اللُّغـة الكرديّـة بـسبب اِنـشغالكم بتعلُّم العربيّة، بينما أنا اِعتبرت تعليم العربيّة في المدرسة كافٍ ولابد من التَّركيز على الكرديّـة من خلال الأصدقاء الكرد، فتطوَّرت لغتي أكثر منكم!

نظروا نحوي وضحكنا جميعاً وقال غالب ردُّكَ قويّ جدّاً، وأفحمتنا بقوّة!

مرَّت الشُّهور سريعةً، وكثيفة بالدَّوام والتَّحضير، والبحث عـن الـسَّكن، وإعـداد الكثـير ممّا نحتاج إليه من مستلزمات الحياة، سكنتُ بضعة شهور في بيت الأستاذ جان زكُّو، في غرفة صغيرة في الطَّابق الثَّاني، في الزُّقاق المؤدِّي إلى مطرانيّة السُّريان الأرثـوذكس، عائلـة هادئـة، أم رؤوم، وأب محترم، الأستاذ جان طيّب المعشر، يحب الدَّردشات.

كان بيت الزّميلة عائدة قاطرجي من الجهة المقابلـة لمكـان سـكني، أحيانـاً كنّـا نعـود سويةً من الدَّوام، وكل منّا يذهب إلى بيته، ومع الأيَّام شعرت أنَّ عائـدة قريبـة منّـي، هادئـة ومريحة، واضحة كإِشراقـة الـصَّباح، كنـت منـذ طفـولتي ويفـاعتي وشـبابي أحـبُّ الـصَّداقات والجيران، والزِّيارات والتّعارف عـلى النّـاس، عفويـة الفلَّاحـين كانـت طاغيـة عـلى شخـصيّتي، سألتها مرّة بكلِّ عفويّتي، هل هناك إحراج يا عائدة لو أزوركم وأتعرّف على أسرتكم؟

أجابتني ولو، أهلاً وسهلاً متى ما تشاء يا صبري، البيت بيتك.

بعد فترة زرتهم فعلاً، وتعرّفت على شقيقتها إنعام قـاطرجي، شخـصيّة رصـينة، عائلـة ودودة، لـسوء حظّـي أو حظّـيهما أنَّ قـدراتي عـلى قـراءة الفنـاجين مـا كانـت قـد ظهـرت

على الشَّاشة في ذلك الحين، وإلّا كنتُ سأعرضُ عليهما خدماتي في قراءة طلاسم الفناجين!!!

توطّدت علاقتي مع أصحاب البيت، سكنت في غرفة صغيرة في العلّيّة، كان الأستاذ جان يدعوني لشرب الشَّاي والقهوة وأحياناً يدعوني لتناول العشاء، لمست منهم كل الودِّ والاِحترام، كنَّا نتناقش في الكثير من المواضيع، التقيتُ مع ابن عمّه الأستاذ سعيد زكُّو، ثمَّ تواصل معي، محاولاً أن يبشِّرني كي يضمّني إلى الإخوة المبشِّرين، شخصيّة تبشيريّة هادئة ورزينة، وبدأ يدعوني إلى الكنيسة الإنجيليّة، وبعد أيّام أمطرني بالكتيّبات الدِّينيّة، وبدأت أقرأ بما يقدِّمه لي أكثر ممَّا أحضِّر منهاجي، مع أنَّ الوقت المخصَّص لقراءة المنهاج ما كان يكفيني، فدخل الأستاذ جان زكّو على الخطِّ دخولاً قويّاً، وخلال شهر طلب منّي أن أقدِّم وعظة على الإخوة الحاضرين، فوافقت على طلبه، وفعلاً حضر بعض الإخوة الإنجيليين التّابعة للطائفة البروتستانتيّة، وقف الأستاذ سعيد وبدأ يقدّمني إلى المنبر، قائلاً معنا اليوم الأخ المؤمن صبري يوسف من المالكيّة وهو يدرس حاليّاً الصَّف الخاص، ليقدّم لنا وعظة اليوم، فصعدتُ إلى المنبر، وبدأتُ أشرح وعظتي، وفيما كنتُ أقدِّم تحاليلي عن الموضوع الَّذي اِختاره سعيد لي والَّذي كان يتمحور حول الخلاص، خلاص الإنسان المؤمن من الخطيئة ونيل الفردوس، انتابني الكثير من التَّساؤلات وأنا على المنبر، أليس من الأجدى لو أحضِّر مقرَّرات منهاجي من أن أقوم بتحضير وعظة عن خلاص الإنسان، هل هذه الوعظة ستخلِّصني من ورطة الإمتحانات الَّتي أصبحت على الأبواب؟! ثمَّ أزحت هذه الفكرة من ذهني كي أستطيع أن أمسك خيوط الوعظة دون أن أنسى بعض النّقاط الَّتي كنت بصدد عرضها على مسامع الحضور!

هدوء تام خيّم على الجَّوّ، ثمَّ استرسلت في الشَّرح والتَّفنيد، وشعرتُ أنّني أخذت وقتاً أكثر ممَّا هو مطلوب منّي، لأنَّ هناك بعض التَّساؤلات والمداخلات والنِّقاشات بعد الوعظة، فأومأ إلي الأستاذ سعيد على أن أقفل الموضوع الّذي أستعرضه على أساس أنَّني أعطيتُ الموعظة حقّها فلا داعي للاِسترسال.

شكرته لأنّه سمح لي بهذه الفرصة، ثمَّ قدَّم بعض الحضور مداخلات شُكُر لي ولم يسألني أحد عن أيِّ سؤال عمَّا قدّمته، ثمّ بدأنا نرتِّل بعض التَّراتيل عن محبَّة المسيح ومحبّة الإنسان لأخيه الإنسان.

خفَّ حضوري عن اللِّقاءات والوعظات الأسبوعيّة، وفي بداية نيسان بدأت الشَّمس تشرق على الغرفة الَّتي أسكن فيها، في العلِّيّة، شعرتُ أنَّ حرارة الغرفة لا يمكن تحمُّلها خاصّة أنَّ الإمتحانات على الأبواب، ومن الصّعب أن أراجع المنهاج في البراري، مثلما كنت أفعل في ديريك بسبب عدم توفُّر هذه الأجواء في الحسكة، فوقع اِختياري على الاِنتقال إلى غرفة أخرى، وفيما كنتُ أشكي همِّي للزميل غالب عبدو في إحدى الفرص، فيما أعانيه من حرارة مرتفعة في الغرفة الَّتي أسكنها، قال لي هل تريد أن تنتقل إلى مسكن جديد؟

قلت له، بكلِّ سرور!

أجابني أنا ومحمد رمضان اِنتقلنا منذ أيام إلى غرفة قبو، قريبة من المدرسة وتستطيع أن تنتقل إلى نفس الغرفة لأنّها تتَّسع لثلاثة أشخاص ونستطيع أن ندرس سويّة في الغرفة وأمام البيت الَّذي نسكنه خلال اللّيل على أضواء المصابيح!

وافقت على كلامه، وانتقلت خلال أيام إلى الغرفة الجَّديدة، ودّعت أصحاب البيت، وأعطيتهم إيجار الشَّهر كاملاً، لكنَّ الأستاذ جان لم يأخذ الإيجار منّي حتّى أنّه أعفاني من دفع قيمة الأيَّام الَّتي سكنتها في الشَّهر الَّذي انتقلت، شكرتهم على حفاوتهم وكرمهم، وخدماتهم الَّتي قدَّموها لي، واعتذرت منهم عن مسألة انتقالي، شارحاً لهم أنّ السَّبب هو أنَّ الحرارة لا يمكن تحمُّلها حتُّى ولو كان لدي مروحة في الغرفة!

ودَّعتهم بكلِّ اِمتنان، وودّعت من خلال اِنتقالي، الأستاذ سعيد زكو دون أن أراه، ولم أحضر المواعظ ولم أتواصل معه من حينها، لأنَّ تطلُّعاتي منذ البداية ما كانت تصبُّ في مسألة التَّبشير، أنا سرياني أرثوذُكسي فلا أريد أن أدخل في قضايا التّبشير والطَّوائف، لأنّني لم أحمل طموحاتٍ دينيّة، جل تفكيري فيما يخصُّ الأديان هو اِحترام الأديان ككل والاِكتفاء بسريانيّتي الأرثوذكسيّة، لأنَّ السّيد المسيح تكلّم الآراميّة أي السّريانيّة وبهذا

يُعتبر سريانياً من حيث النَّسب اللَّغوي، هكذا كنتُ أنظر إلى أهمِّيّة سريانيّتي، ولم أتوقّف في أيّة مرحلة من مراحل عمري عند الموضوع الدِّيني إلّا من باب واسع ورحب، ويصبُّ فيما هو إنساني واِحترام كلّ الأديان وتقديم أبهى ما لدي ولدينا للبشر كلَّ البشر، فها أنذا أنتقل إلى غرفة يسكنها الأصدقاء الكرد، اِستقبلني غالب بكلِّ فرح، وزّعت كتبي وحاجياتي في ركنٍ من أركان الغرفة، وقمنا بحملة تنظيفٍ في الغرفة، ثمَّ خرجنا لشراء بعض الحاجيات الضّروريّة.

استفدت جدَّاً من انتقالي، بسبب تكثيف قراءتنا وتحضيرنا للمنهاج، وتقسيم المصروف والإيجار على ثلاثة، وكان غالب ورمضان شاطرَين في طهي الطّعام، فقال لي غالب أنتَ بشو شاطر يا صبري فيما يخصُّ الطَّعام؟

قلت له بالحقيقة أنا شاطر جدَّاً بتناول الطَّعام، خاصَّة عندما يكون شهيّاً بالطَّريقة الّتي تعدّونه، فضحكا لردّي وضحكتُ معهما، وخلال وقت قصير تعلّمت كيفيّة طبخ الكثير من الطَّبخات، وكنتُ أساعدهم في تقطيع الخضار وتجهيز الطّاولة، شعارنا كان التّعاون والنّظافة ورمي النِّفايات يوميّاً كي تكون الغرفة نظيفة!

ما كنّا نغيب عن الدَّوام، إلّا في الحالات الاضطراريّة، كانت "فلك" عريفة الصّف في شعبتنا، قامة جميلة ووجه ينضح فرحاً، وجه بشوش، تكحّل جفونها باللَّون الأخضر، فكانت تبدو كأنّها أميرة، بسمتها مشرقة، تصلح أن تكون معلّمة للحلقة الإعداديّة وليس للمرحلة الاِبتدائيّة فقط، دخلت جاكلين جرادة تسألني هل عندنا درس أستاج هذا الأسبوع، أجابت فلك على سؤالها، ثمَّ تقدّمتُ نحو راحيل كنعو أسألُها عن آخر درس أخذناه في التّربية العامة، رفعت يديها، ثمَّ حوّلت الجوّاب إلى نهاد بصمه جي، فضحكت نهاد ثمّ دخل الموجه حنّا بقامته الطَّويلة وعينَيه الخضراوَين، موجّه قدير وكان بمثابة صديق لنا، كم حزنتُ عليه عندما سمعت لاحقاً أنّه توفي، فذهبتُ أقدّم التّعازي لآل نعمان، لأن أم كابي نعمان شقيقته!

فجأة يقفز إلى ذهني الصَّديق جميل برو، شخصيّة طيّبة وأحياناً لا مبالي في الوظائف، وصلني منه سلاماً بعد سنوات من نجاحي في الصَّف الخاص عن طريق

الأستاذ جرجس بهنان أبو حيّان! فقد التقى جميل برو مع الأستاذ جورج، ونطلق على الأستاذ جرجس بهنان الأستاذ جورج، بينما يتمُّ كتابة اسمه في السّجلات جرجس! قال لي أنَّ جميل برو من الحسكة يسلِّم عليّ جزيل السَّلام، ثمَّ أشار أن جميل أفاده بأنّني أغنّي بالإنكليزيّة أحلى الأغاني!

ضحكتُ، قائلاً، جميل برو قال لك أنّني أغنّي أحلى الأغاني بالإنكليزيّة.

قال أبو حيّان، نعم جميل قال لي بالحرف الواحد صبري غنّى لنا مراراً أغاني بالإنكليزيّة.

وماذا ردّيتَ عليه.

اِندهشتُ عندما قال لي هذا الكلام، خاصَّة أنّني لم أسمع أبداً أنّك تغنّي بالعربيّة، فكيف دفعةً واحدة ستغنِّي بالإنكليزيّة!

شو القصّة، هل جميل كان يبالغ؟

لا، يا أستاذ، جميل برو ما كان يبالغ، هو شخص جميل، إسم على مسمَّى، القصّة وما فيها يا أستاذ أنّني أحبُّ الفكاهة، وأحبُّ أن أخلق أجواءً مرحة في الرّحلات وفي الاِستراحات وفي اللِّقاءات المختلطة!

أيوه، لا حظت هذا في شخصيّتك.

كنَّا في رحلة من طلاب وطالبات الصَّف الخاص إلى حلب، وتعرف الطَّريق من الحسكة إلى حلب طويلة، فلا بدَّ من النّكات والأغاني وخلق جوّ فكاهي كي نقضي وقتاً ممتعاً في الطَّريق!

طيّب، وشو علاقة الرِّحلة بالغناء بالإنكليزي.

جاييلك بالكلام، طوّل بالك يا أستاذ جورج!

تفضّل، معك خمس دقائق لأنَّ بعد ذلك يجب أن تقرع الجَّرس وحان وقت إدخال الطُّلاب إلى صفوفهم.

باختصار، أثناء الطَّريق غنَّينا بعض الأغاني الفولكلوريّة المحلّيّة والأغاني الشَّعبيّة والأغاني الَّتي نتقنها، ثمَّ وقفتُ وقلتُ للزملاء والزَّميلات بالحقيقة عندي بعض الأغاني

الإنكليزيّة الّتي كتبتُ كلماتها بنفسي ولطشتُ ألحانها من بعض الأغاني السُّوريّة، فصفَّق لي الزُّملاء والزَّميلات وأوَّلهم جميل برو، وقال معنا الآن المطرب صبري يوسف ليقدِّم لنا وصلة باللَّغة الإنكليزيَة، تصفيق حاد!

كنت على وشك أن أضحك لكنّي حاولت أن أتمالك أعصابي، وقلت لهم سأغنِّي أغنية سميرة توفيق "لا باكل ولا بشرب بس بطلّع في عيونك" فصفَّق الجميع مع تصفير، ثمَّ بدأت أترجم بشكل فوري وعلى إيقاع لحن الأغنية، مشترطاً عليهم أن يردِّدوا كل مقطع بمقطع، كان الضحك مهيمناً على الكورث وعليّ، إلى درجة أنَّ سائق الباص نفسه ضحك وانخرط مع عوالمنا ممّا أدَّى إلى اِنحراف الباص عن طريقه وسار على الطَّريق التُّرابيّة بضعة أمتار ثمَّ حصل هرج ومرج وقلق كبير لأنَّنا شعرنا أن الباص سيهوّر بنا، واستقام سير الباص، وسألنا السَّائق شو صار بالباص؟

ما صار شي، بس شردت قليلاً وبقيت معكم وبدأت أردِّد معكم وأضحك معكم ونسيت نفسي وإذ بالباص ينحرف عن الطَّريق قليلاً، الحقّ كله على صبري، راح يودِّينا في ستِّين داهية لو ظلَّ يغني لنا بالإنكليزيّة بهذه الكوميديا الفكاهيّة!

يا شيخ الشَّباب، يعني راح تحطّ كل شي في رقبتي! يا أخي أنا عم أغنِّي، ما عم أسوق الباص، هل تريدني أن أغنّي وأغير الألحان إلى الأغنية الإنكليزيّة وأقود الباص بنفس الوقت؟ مستحيل، لأنَّ التَّرجمة لوحدها تحتاج إلى صفاء ذهن وتركيز كبير، أليس كذلك أخي جميل!

أجابني جميل برو بكلِّ تأكيد تحتاج إلى تركيز وإلى توزيع الأغنية من جديد!

ضحك الجَّميع ثمَّ هدأنا قليلاً وخيَّم صمت على كلِّ مَن في الباص، مستسلمين لاسترخاء، بعد ضحك وفرحٍ وغناءٍ على مدى ساعات!

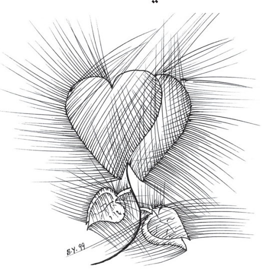
دخل أستاذ جورج على الخطّ قائلاً، يعني لو قمنا برحلة مع الطُّلاب والمدرِّسين ممكن تغنِّي لنا بالإنكليزي.

ممكن لكن بشرط أن يرافقنا في الرّحلة الصَّديق جميل برو.

وليش تشترط وجود جميل برو، من أين سندعوه إلى الرّحلة وهو في الحسكة ونحن في ديريك!

أجبت، لأنَّ جميل أقوى مشجّع وأقوى كورث!

ضحك أبو حيّان، ثمَّ دقيّتُ الجرس، كي يدخلَ الطَّلاب إلى صفوفهم!



28

يا إلهي، دمشق عاشقة لا تنام

بدأتُ أحضِّر المواد الَّتي سنقدِّمها، أزعجني جدًّاً عدد المواد والمقرَّرات العديدة والمعلومات الَّتي أغلبها حشو، وضعت المقرَّرات أمامي وبدأت أتصفَّح الفهرس لكلِّ مادّة ووضعت برنامج للمواد التّي تهمُّنا وحذفت قرابة نصف المنهاج ولم أقرأ المقرَّرات الَّتي حذفتها نهائيَّاً ولم أمرّ عليها حتّى مرور الكرام! ووضعت في الاِعتبار أيّ سؤال يردني ممَّا لم أقرأه وأطلع عليه سأجيب عنه بحسب معلوماتي العامّة وبحسب قناعاتي وعلى ضوء السُّؤال!

تقدّمت للاِمتحان، وبدَت لي أسئلة الاِمتحان بسيطة وغير معقَّدة بحجم ضخامة المنهاج، وقد كان المنهاج مجرّد مرجع لنا، بينما الأسئلة تمحورت حول كيفيّة شرح وإعداد الدُّروس وتقديمها للتلاميذ، صدرت النتّائج وكنت من عداد النّاجحين!

بعد صدور النّتائج، شعرت أنَّ لوزاتي ملتهبة، تناولت الكثير من الحبوب وبعض الإبر من دون أيّة فائدة، نصحني بعضهم أن أجري عمليّة لوزات خلال الصَّيف قبل افتتاح المدارس، فوجّهت أنظاري نحوَ دمشق، حيث كان أخي نعيم يؤدّي الخدمة الإلزاميّة، وكانت أوّل مرّة أرى دمشق، يا إلهي دمشق عاشقة لا تنام!

توجّهت من سوق الحجاز نحو طبّالة عن طريق باصات طبّالة جرمانا، نزلت في موقف طبّالة، شارع دويلعة، وهناك وجدتُ عشرات الشَّباب من ديريك، فدلُّوني على بيت أخي نعيم، أخذني بالأحضان وكان الصَّديق سمير حماوي مستأجراً معه، بعد فترة راجعت الطَّبيب وعاين لوزاتي، ثمَّ طلب منّي أن أزوره مرّة أخرى لتحديد موعد لإجراء عمليّة لاِستئصال اللَّوزات!

حاول نعيم أن يقنعني بفكرة إلغاء إجراء العمليّة، ونجح في إقناعي، كي نتمتّع في الوقت بدلاً من أن نصرف كلّ هذه المصاريف على إجراء العمليّة، مؤكّداً لي أن التهاب

اللَّوزات يحصل مع أغلبنا وسوف تتشافى اللَّوزات مع الزَّمن، ونستطيع أن نقضي وقتاً ممتعاً في دمشق خلال فترة وجودي، وستتحسّن لوزاتي من خلال تغيير الجَّو.

اليوم نستطيع أن نذهب إلى السِّينما خلال المساء وأعرّفك على معالم الشَّام، وغداً سآخذك إلى باب توما كي نتمشّى في أزقّتها الضَّيقة الجميلة وبيوتها القديمة الملاصقة لبعضها بعضاً، وسأريك كنيسة حنانيا والبطريركيّة ثمّ سنذهب إلى شارع القصّاع، ستجد أجمل جميلات دمشق، ستطيب لوزاتك من دون أيّة عمليّة!

ضحك سمير حماوي، فيما كان يسمع مخطَّط أخي نعيم.

أخذنا ليلاً باصات الحجاز، ثمَّ مشينا في قلب المدنية متوجِّهين نحو ساحة المرجة ومن هناك نحو سينما الكندي، كان جبل قاسيون يعانق السّماء، حضرنا فيلماً لغوَّار الطَّوشة، مليئاً بالمقالب والفكاهات، خرجنا ونحن نضحك، ثمَّ تناولنا سندويشة فلافل وكأس عيران، وتمشَّينا في المدينة، كنتُ شغوفاً بقراءة آرمات المحلَّات والفنادق والمطاعم، تجذبني أنواع الخطوط، لأنّني خطّاط ومولع بأنواع الخطوط، ثمَّ أخذنا باص طبّالة، حيث كان سمير بانتظارنا لتناول طعام العشاء!

تناولنا طعامَ العشاء، ثمَّ كسر سمير جبسة حمراء، تناولنا الجبسة بشهيّة، وخرجنا مشواراً في شارع دويلعة، التقاني الكثير من الأصدقاء، سلّموا عليّ بحرارة، شعرتُ وكأنّني في شوارع ديريك لكثرة المعارف من ديريك والقامشلي في شارع دويلعة.

أفكِّر أحياناً بديريك وقرار تعييني، لكنِّي أزيح هذه الأفكار من ذهني لحين أوانها، ظلَلَتُ وحدي في صباح اليوم التّالي، فقد ذهب نعيم وسمير إلى الخدمة، وبقيت حرّاً طوال النّهار، سيعودان عصراً ما بين الرَّابعة والخامسة!

ترك أخي معي نسخة مفاتيحه، نهضتُ بتكاسلٍ، غسلت وجهي، وأعدَدْت لنفسي فطوراً، وشربت شاياً ثمَّ خرجتُ أتجوَّل في دويلعة وفكّرت أن أزور قلب دمشق لوحدي، بدَتْ لي دمشق مدينة حنونة، شعب طيِّب، خدمات، مواصلات متوفّرة بشكل دائم، الطَّعام رخيص في المطاعم، كلُّ شيء بدا لي جميلاً وجديداً، دخلت سوق الحميديّة مبهوراً بهذا السُّوق الجميل، المسقوف من الأعلى بشكل بديع، أعجبتني البوظة المرشرشة

بالفستق الحلبي النَّاعم، اشتريت قمعاً من الحجم الكبير، تناولته بلذّة عميقـة، وبـدأتُ أسـير ذهاباً وإياباً في سوق الحميديّة، أنظر إلى الأسـواق بمتعـةٍ كبـيرة، توقّفـت مـراراً عنـد الأعـواد، و"بازرت" عوداً جميلاً ولكنَّ الفلوس الَّتي معي ما كانت تكفـي لـشراء العـود مـع المـصاريف الَّتي سنحتاجها، وكان أخي شـبه مفلـس، لهـذا فـضَّلت أن أتـرك فلـوسي لمـصاريفنا وللعـودة، وأجَّلت موضوع شراء العود بعد أن أشتغل في سلكِ التَّعليم!

خرجت من سوق الحميديّـة، قاصـداً مطعـم الـشَّاورما، اشـتريت سندويـشة شـاورمة، كانت لذيـذة للغايـة، لكنّهـا صـغيرة الحجـم، فاشـتريت سندويـشة أخـرى، فقـال لي صـاحب المطعم، الأخ جزراوي، فقلـت لـه نعـم، كيـف عرفـت؟ فقـال مـن عـدد السَّندويـشات الَّتـي تشترونها، أقل واحد منكم يتناول سندويشتان، فضحكتُ قائلاً ولكن سندويشاتك صغيرة.

نعم هي صغيرة ولكنها دسمة ولذيذة.

فعلاً لذيذة! وذكَّرني هذا الأمر بوديع ابن عمي عندما التحق بالجيش، كـان يحـكي لنـا كيـف كـان يأكـل مـا بـين 6- 10 سندويـشات شـاورما كي يقـول شـبعتُ، ويتوقّـف عـدد السَّندويشات على مدى جوعه ومدى تدريبه عند المدرّب كمال بوظان!

عدتُ بحدود الرّابعة بعد أن قضيتُ جولـة ممتعـة في أنحـاء المدينـة، فتحـت البـاب، وأجريت تهوية للغرفة ورتَّبتُ الأسرّة ورميت بعض النّفايات ومسحت الغرفـة، وهيّـأت الجَّـو لقدوم نعيم وسمير، وفيما كنت أرتّب الغرفة، دخل سمير ونظـر إلى الغرفـة، وقـال يـا عينـي، مين عمل الغرفة هيك حلوة، فقلتُ أنا، فقال يا ريت لو تبقى عندنا طوال الصَّيف.

ليش يعني.

لأنّك مرتّب ونظيف جدَّاً! لأنّنا حتّى لو نكون معطّلين وفي البيت، لا أنا ولا نعيم هكذا نظاميين أو مرتّبين مثلكَ، تبدو مهتمَّاً في نظافة الغرفة منذ أوَّل يوم دخلت إلى الغرفة!

أهم شيء هي النّظافة يا صديقي، خاصَّة في هذا الصّيف الحارّ.

نعم النّظافة مهمّة ولكن نحن نوعاً ما غير منظّمين!

فيما كنّا نتحدّث على نظافة الغرفة، دخل نعيم واستغرب هو الآخر وقال شو هل النَّظافة والرِّيحة الطِّيبة في الغرفة؟!

صدّق كلّ هذه النَّظافة شغل صبري، أجاب سمير.

ليش ما جيت من زمان؟ قال نعيم.

ضحك سمير وقال أنا قلت لصبري يا ريت لو تبقى عندنا طوال الصَّيف!

قال لي نعيم هل أنت جوعان، فقلتُ لا، تناولت سندويشتَين شاورما في البلد!

وقال نعيم وسمير نحن عادة نأكل طعام الغذاء أثناء الخدمة، سنؤجّل الطّعام للعشاء، استبدل لباسه العكسري وأخذ دوشاً، ثمَّ ارتدى لباسه المدني، وتوجَّهنا نحو باب شرقي، ثمَّ عبرنا أزقّة باب توما، وقبل أن نصل إلى كنيسة حنانيا قال نعيم، هنا في هذه العلِّيّة يسكن فؤاد ابن خالنا مسعود عازار!

سألته هل هو هنا، فقال طبعا هو هنا، ولكن يبدو الآن أنّه غير موجود في المنزل.

كيف عرفت أنّه ليس في المنزل.

لأنَّ أضواءه مطفأة.

مررنا بجانب كنيسة حنانيا، دخلت فيها وألقينا نظرة فيها، تعود لعهود غابرة في القدم، أشعلنا شمعتَين! شعرتُ بهيبة وقداسة في أجواء المكان، شعرت باطمئنان وهدوء، تذكَّرت كنيسة العذراء في ديريك، وظهور الميرون المقدّس فيها!

خرجنا نوجّه أنظارنا نحو باب توما الجّانح نحو حضارة وتاريخ السِّريان، يشمخ في ساحة تطلُّ على شارع القصّاع، الجوُّ جميل، تمشَّينا على رصيف الشَّارع، ذكَّرني الشَّارع بشارع المشوار في القامشلي، شارع شكري القوتلي، سلّم الكثير على أخي نعيم فيما كنَّا نتمشَّى، لا أعرف الكثير منهم والقليل منهم من ديريك، وأمَّا الَّذين من القامشلي والحسكة وغيرها من المدن فلا أعرفهم، يبدو من لهجاتهم أنّهم أبناء الشِّمال، أبناء الجزيرة، أبناء الخابور وأبناء الحنطة الخضراء، أبناء الخير، أبناء محافظة غائبة عن دائرة الاِهتمام في ذلك الزّمان!

قضينا وقتاً ممتعاً، ثمَّ عدنا فوجدنا غرفة فؤاد مضيئة، قال نعيم الآن فؤاد في البيت، ما رأيك أن نصعد عنده ونشرب فنجان شاي وأعرّفك عليه ثمَّ نتابع طريقنا إلى دويلعة.

لِمَ لا؟

صعدنا درجاً طويلاً ثمَّ دقَّ نعيم على الباب، فردَّ فؤاد تفضّلوا، فتح الباب ودخلنا، ثمَّ قال لنعيم أهلاً بابن عمّتي.

وبكَ يا ابن الخال العزيز، ثمّ قدّمني له قائلاً، أخي صبري، وقدّمه لي، فؤاد ابن خالنا مسعود عازار.

جلسنا، غرفة صغيرة جميلة معلّقة في الطَّابق الثَّالث، تناسب طالبَين أو عاشق وعاشقة، غرفة فيها فن وفرح وهدوء، مطبخ صغير تابع لها، وبجانبها حمَّام صغير، الشَّاي على النَّار، قال فؤاد، أم تحبّان القهوة؟

شاي، أجاب نعيم وأنا أيضاً سأشرب الشّاي.

مرّ عندي منذ فترة جوزيف سيروب، عضلات محترمة صايرة عنده!

بالفعل، قال نعيم.

يتدرّب جوزيف وفؤاد كمال الأجسام، مغرمان بكمال الأجسام وبابراز عضلات الصّدر وعضلات الزّند!

شو تحبون تسمعوا؟!

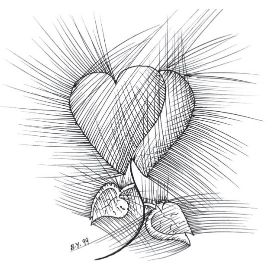
فيروز!

ذوق رفيع، قال فؤاد، ووضع كاسيت لفيروز، وبدأنا نسمع صوتها الحنون، وبعد أن قضينا وقتاً ممتعاً، استأذنَّا من فؤاد بعد أن شربنا شاينا، أزقّة باب توما تذكّرني بالتّاريخ، لا يكفي الزُّقاق لمرور أكثر من شخصين، وكأنَّ الزُّقاق مصمَّم لعاشق وعاشقة، ولحبيب وحبيبة، لصديقَين حميمَين. كم كنتُ أتمنّى لو كان لي بيتاً في تلك الأزقّة الرَّائعة!

رحّب بنا سمير قائلاً، حميتكن عم تحبكن، قصده أتينا في الوقت المناسب تماماً، كان قد أعدَّ عشاءً على مذاقه، شخصيّة سمير تبدو هادئة، شوارب ولحية حمراء وشعر

أشقر ضارب إلى الاِحمرار، صدره معضَّل وعـضلات اليـدين مرصرصـة، يبـدو أنَّ موجـة كـمال الأجسام أصبحت تقليداً عند الكثيرين من أبناءِ الشِّمال.

قضيتُ وقتاً طيّباً في دمشق، نسيت الهدف الَّذي جئت من أجله، حتّـى أنّنـي شـعرت أنَّ لوزاتي في تحسُّن مستمر، وخفَّ التهابهما كثيراً، ظلَلْتُ في دمـشق حتَّـى قبـل صـدور قـرار تعيين المعلِّمين بأسبوع، أعطيت لنعيم أغلب ما تبقّـى معـي مـن فلـوس، وقطعـت بالبولمـان المتّجه نحو القامشلي، وتركت مصروف طريق فقط معي، وإيجـار طريـق للـذهاب للحـسكة والعودة إلى ديريك.



29

تعييني في مدرسة محركان وانتقالي إلى خربة عدنان

صدر قرار تعيين المعلمِّين والملِّعمات، وكان تعييني في مدرسة محركان التّابعة لقبور البيض، اِستلمت قرار تعييني، وتوجّهت نحو قبور البيض، ثمَّ أخذت سيارة أجرة من قبور البيض حتَّى محركان!

اِلتقيت مع مختار القرية، دعوتُ عن طريق المختار إلى اِجتماع سريع عند المختار لبعض أولياء التَّلاميذ، ولبّوا دعوتي، فتحت أبواب المدرسة كانت المدرسة تتألّف من غرفتين من اللّبن، غرفة صغيرة للمعلّم، وغرفة صف كبيرة للتلاميذ، طلبت من المختار أن يكلِّف بعض أولياء الطُّلاب كي ينظِّفوا المدرسة ويمسحوا الأرض والجدران ويكلِّسوا الجدران بالكلس كي تكون نظيفة، وأعطيتهم مهلة ثلاثة أيّام، وفعلاً بدأ بعد ساعات العمَّال بالعمل بهمّة كبيرة، دعاني المختار إلى الغذاء، ورحّب بي بعض وجهاء القرية، وتناولنا العذاء، ثمَّ زرنا كنيسة مار جرجس في محركان. أشعلت شمعة هناك بنيّة أن أنتقل من محركان إلى أقرب قرية متاخمة لديريك!

داومتُ يومَين في مدرسة محركان، ثمَّ عدْتُ أدراجي إلى الحسكة كي أنتقل إلى أقرب قرية من ديريك، اِلتقيت مع رئيس قسم النَّسخ السيّد عيسى بولص أبو بول، وشرحت له موضوع تعييني، فقال لي نقلك إلى ديريك بالذّات صعب مباشرة، ولكن ممكن أن يتمَّ نقلك إلى قرى قريبة من ديريك.

أنا أريد في البداية أن أنتقل إلى قرى قريبة من ديريك، أخذ قرار تعييني ومباشرتي بالعمل، وذهبنا سويّة إلى مدير التّربية، قدّمني على أنّني معيل لأسرتي وأحد أقربائه، ويعرف وضعي معرفة جيّدة، وطلب من مدير التَّربية نقلي إلى أقرب قرية من ديريك، فقال له مدير التَّربية ولكن الأستاذ معيّن بمدرسة محركان منذ أيّام، أجابه أبو بول أن

ينتقل الآن أفضل من أن يتمَّ نقله بعد شهر أو شهرين كي يباشر بطلابه على مدى العام كله!

طيّب دقيقة، نظر مدير التَّربية إلى الشَّواغر في القرى التَّابعة لديريك وقال هل يناسبك يا أستاذ أن تنتقل إلى مدرسة خربة عدنان.

أيوه أستاذ، يناسبني تماماً!

فتمَّ نقلي إلى قرية خربة عدنان!

أصدر مدير التَّربية قرار نقلي مباشرة بخطٍّ يده، وأخذنا قرار نقلي إلى قسم النَّسخ ودقَّت ختام، ابنة أبو بول، القرار لأنّها كانت تعمل في قسم النّسخ أيضاً، ثمَّ عدْتُ أدراجي إلى محركان ثانية، وقدّمت اِنفكاكي وختمت انفكاكي بختم المدرسة وظلَلَت تلك اللَّيلة في محركان، وفي اليوم الثَّاني قلت للمختار سأتوجّه إلى ديريك وأعود قريباً للمباشرة في العمل فيما إذا بقيت مستمرّاً في تعييني على قيود مدرستكم، ولم أخبره عن موضوع اِنتقالي كي لا أصدمه!

أجابني عفواً أستاذ نحن نريدك في مدرستنا وستلقى كلّ الحب والتَّعاون، تفضَّل اِلقِ نظرة على المدرسة أصبحت مثل العروس!

كانوا فعلاً قد نظّفوا المدرسة وكلَّسوها بحسب طلبي، وقبل أن أنطلق من محركان باتِّجاه قبور البيض، جاءني ولي أمر أحد الطُّلاب وطلب منّي أن أزوِّده بشهادة نجاح أحد الطُّلاب الرَّاسبين في الصَّف السّادس للعام الماضي، فقلت له أنا ما كنت العام الماضي معلـمّاً في هذه المدرسة، بأيِّ حقٍّ سأزوِّدك بهكذا وثيقة، إنَّ مدير التَّربية نفسه لا يستطيع أن يزوِّدك بهكذا وثيقة، فقط المعلّم الَّذي درّس تلاميذ هذه المدرسة العام الماضي هو الوحيد يستطيع تزويدك بهكذا وثيقة.

أجابني نعم زوَّدنا بوثيقة راسب للطالب، فقلت له، إذاً يجب على الطَّالب أن يداوم في صفّه، ولو اِجتهد سأزوِّده بوثيقة نجاح هذا العام!

شكرني، ثمَّ ودَّعني وأنا وجّهت أنظاري نحو القحطانة ومنها إلى ديريك!

وضعت قرار انفكاكي في بريـد قبـور البـيض، وفـيما كنـت أنتظـر عـلى الطَّريـق العـام، وجدت سيارة تاكسي تتوقَّف من تلقاء نفسها، نزل منها أحد الرُّكاب في قبور البيض، وصعدتُ بدوري في مكانه متوجّهاً نحو ديريك بسرورٍ كبير!

جاء الأهل وسلّموا عليّ، على أساس أنّني أجريت عمليّة لوزات، ويهنّئـونني عـلى قـرار تعييني معلّماً في حقلِ التّعلم، وبدأتُ أتحدَّث لهم عن دمشق والوقت الجميل الّـذي قـضيته في الشَّام. قال لي عمِّي وهو مسرور بعودتي بالسَّلامة، نحـن كنَّـا قلقـين عليـك طـوال الوقـت، وأنت كنتَ تتمشور وتجخّ في الشّام.

الحمدلله لوزاتي بخير، وقرار تعييني صدرَ أخيراً في مدرسة خربة عدنان.

ألف مبروك وعقبال تنتقل إلى ديريك.

شكراً عمّو، شكراً لكم جميعاً.

ذهبتُ باكراً في اليوم التَّالي إلى مدرسة خربة عدنان، والَّتي كانت تبعـد بحـدود سـاعة أو أقل سيراً على الأقدام!

كتبتُ مباشرتي بالعمـل وختمتهـا بخـتم مدرسـة خربـة عـدنان، وأرسـلتها إلى مديريّـة التَّربية بعد عودتي من الدَّوام.

اِشتغلت في اِبتدائيّة خربة عدنان قرابة شهرين، كنت أذهب من بيتي إلى القرية مشياً على الأقدام، لكنِّي حلّيتُ مشكلة الـذِّهاب والإيـاب باسـتعارة درَّاجـة أخـي والرُّكـوب عليهـا ذهاباً وإياباً!

شعرتُ أنَّ العمل في اِبتدائيّات القرى أشبه ما يكون أشغالاً شاقّة، خاصَّة عنـدما يكـون المعلِّم وحيداً في تدريس التَّلاميذ من الصَّف الأوَّل حتَّى الصَّف السَّادس. تعرّفت على الطُّلَّاب ووزَّعتهم إلى مجاميع، كل مجموعة تضمُّ صفّاً، قرابة 40 طالباً مـن كافّـة الـصُّفوف، أكـثر مَـن لفت انتباهي طالب من طلاب الـصَّف الثَّالـث الاِبتـدائي، كـان يـسمى ميـشيل سـليمان، ابـن السَّيد "سِلِي"، حيث كان والده معروفاً بـشجاعته ونحافـة جـسمه وقـصره، وجرأتـه النّـادرة، وكان ميشيل يتذرّع كلّما أسمِّعه الدَّرس قائلاً لي أستاذ والـلـه العظيم لمبتنا انكسرت امبارحـة باللَّيل، ما قدرت أعمل دروسي.

طيب ليش ما عملت وقرأت دروسك بالنّهار؟

يا أستاذ أبو هلكني هلكان، ما يخلِّيني أرتاح لا باللِّيل ولا بالنّهار.

ليش هلكك، عم يضربك؟

لا، ما عم يضربني بس يا ريت يضربني ولا يعمل شي الّي عم يعلمو فيني.

شو يعمل فيك؟

اِمبارح مثلاً وقبل اِمبارح أخذني على الـوروز، حقـول الجـبش والبطـيخ، وقـال لي بـدّك تقطف الجبش وما تخلّي جبشة في الورز، تعا ولحّق يا أستاذ.

شو رأيك أستاذ لو أجيبلك معي بكرا جبشة أو بطيخة على المدرسة؟

خلّينا من جبشتك ومن بطِّيختك، وركّز عـلى دروسـك وبعـدين اِحكـيلي عـلى الجـبش والبطّيخ والشّمَّام والتَّرعوز.

بدّي أركّز يا أستاذ بس يفكّ أبوي منّي وما يورّطني في الورز مرّة تانية!

طيّب ميشيل، سـلملي عـلى أبـوك وقلّـو خـلّي يخفِّـف عليـك موضـوع لملمـة الجَّـبش والبطيخ والفنجكات من الوروز!

معليش أستاذ تسلَّم عليو وأخبّره على وصيّتك.

خطَّطتُ أن أنتقل من خربة عدنان، قبل حلول الـشّتاء، لأنّـه يـستحيل أن أتمكَّـن مـن الذِّهاب والإياب على الدّراجة خلال الشِّتاء، وليس من المعقول أن أذهب إلى القرية على ظهر البغال، مع أنَّ فكرة ركوب بغلة مثل بغلتنا البيضاء كانت تراودني، ولكنّنا ما كنّا نملك بغالاً في حينها! ولهذا وضعت كلّ تركيزي للاِنتقال من القرية إلى ديريك، وبعد جهود جهيدة، تمكّنـتُ أن أنتقل إلى إعداديّة يوسف العظمة موجّهاً لطلاب الصَّف السّابع والثَّامن، وهكـذا تخلّـصتُ من همِّ الذِّهاب والإياب إلى مدرسة خربة عدنان لأنَّ برودة الشِّتاء كانت على الأبواب!

30. تعييني موجّهاً في إعداديّة يوسف العظمة

وطرائف الأستاذ نوري خلف البديعة

بعد حوالي شهرين وقبل حلول الشِّتاء، تمَّ تعييني وندبي موجّهاً في إعداديّة يوسف العظمة، والّتي كانت سابقاً مدرسة ناظم الطَّبقجلي الَّتي درست فيها الاِبتدائيّة حتّى الفصل الأوَّل من الصَّف الرَّابع، وقد عمَّروا للمدرسة الاِبتدائيّة ملحقاً يتضمّن عدّة غرف للشُعَبِ الإضافيّة، وكان يعمل معي في حينها بالتَّوجيه الأستاذ أفرام رفو الَّذي أصبح لاحقاً قسيساً لكنيسة ماردودو في ديريك، وكان الأستاذ جرجس بهنان في حينها مديراً للإعداديّة.

إنَّ أطرف ما يتلألأ في مروج الذَّاكرة، بعض القصص الطَّريفة الّتي حصلت مع الأستاذ نوري خلف مدرّس مادّة العلوم.

ما كان يستطيع الأستاذ نوري خلف أن يقضي فصلاً كاملاً من فصول السَّنة في أيَّة مدرسة يتعيّن فيها، وسرعان ما كانت الشَّكاوي تتقدّم من قبل الطُّلاب والمدرِّسين والمدير ضدّه، فيضطرُّ مدير التَّربية أن ينقله من مدرسة إلى أخرى، وقد كان مدرِّساً مكلّفاً من مدينة القامشلي.

عرف مدير الإعداديّة الأستاذ جرجس بهنان بموضوع تنقُّلات الأستاذ نوري خلف من مدرسة إلى أخرى، فأراد أن يفاجئَ مديريّة التَّربية بأنّه قادر مع الهيئة الإداريّة والمدرّسين والطُّلاب، أن يستوعب هذا المدرّس على مدى فصلين متتاليين، وفعلاً نجح المدير البارع في إبقاء المدرّس على صفوفه وشعبه على مدى فصلَين متتاليَين للصفّين الأوَّل والثَّاني الإعدادي!

لم أرَ في حياتي الأستاذ جرجس بهنان يضحك، لكنّه ضحك مراراً من خلال القصص الطَّريفة الَّتي كان يسمعها عن الأستاذ نوري خلف، فقلت للمدير تعرف أستاذ جورج أنتَ إنسان ذكي جدَّاً.

وكيف عرفت هذا؟

لأنّه لو تعيَّن الأستاذ نوري خلف موظِّفاً في مديريّة التَّربية، سوف ينتقـل مـدير التّربيـة بعد شهور إلى الرَّقّة أو ديرالزّور هرباً من مشاكله وغرائبيّته.

ضحك المدير وقال، أريد فعلاً أن أتحدّى مديريـّة التَّربيـة عـلى أنّـه ممكـن أن نتحمّـل هكذا مدرّس على علّاته، وإلّا لماذا نحن مدراء ندير المدارس؟!

ونظراً لأنَّ كل ساعات الأستاذ نوري كانت ضمن صـفوف شـعبي المـسندة إليَّ كموجّـه ومشرف على الطُّلاب الَّذين يدرّسهم، لهذا عندما كنتُ أجد لديَّ وقت فراغ، كنتُ أطلب منـه أن أحضر درساً عنده على أساس أنَّ حضوري هو جزء من عملي كموجّه ولـضبط الـصَّف مـن جهة أخرى، كي يسير الدَّرس بشكل هادئ بدون مشاكل مع الطّلّاب!

حضرت درساً من دروسه، وجلستُ في الصُّفوف الخلفيّـة، كي أسـتطيع مراقبـة الطُّـلاب المشاكسين، وكي أرى كيفية شرح المدرِّس دروسه للطلّاب!

دخلت قبله إلى الصَّف، ولهذا عندما دخل تفاجأ بانـضباط الطُّـلاب وهـدوء تـام خـيّم على الصَّف، سجَّل أسماء الغياب. ثمَّ بدأ يشرح الدَّرس وكأنّه يـستعرض عمـل مـسرحي، عـلى أساس أنَّ شخصيّته قويّة، ثمَّ بدأ بشرح الدَّرس قائلاً:

هناك حيوان "سغير سغير"، يعيش في البحار "والمحيتات"، وفي الأنهار "السَّغيرة"، اسـمه اسمه.... ثمَّ ينظرُ إلى السَّقف ولا يتذكّر اسم عنوان الدَّرس!!!

يعود ويبدأ من جديد، قائلاً،

درسنا اليوم هو عـلى حيـوان "سـغير سـغير"، يعـيش في البحـار "والمحيتـات"، والأنهـار "السَّغيرة"، هذا الحيوان يتغـذَّى عـلى الأسـماك وبعـض الكائنـات "الـسَّغيرة" الّتـي تعـيش في الأنهار والبحار، يدعى يدعى، ثمَّ ينظـر ثانيـةً إلى الـسّقف ويركَّـز لاستحـضار إسـمه، لكنّـه لا يتذكَّره، فتتغيّر ملامح وجه، ويعود قائلاً،

درسنا اليوم هام جدّاً، ويـدور حـول حيـوان "سـغير سـغير" يعـيش في البحـار والأنهـار "السّغيرة" اسمه اسمه، ولا يتذكَّره فيتعصّب من نسيان الاِسـم ويقـول اسـمه باللُّغـة الكرديّـة "الكيفشال"!

أنا متأكّد، لولا وجودي في الصَّف لقام الصَّف فوقاني تحتاني، لكنَّ طـلَّاب الـصّف ظلّـوا منضبطين ولم أجد أيّة فوضى فيه، وإلَّا سـيتعرّض المـشاغب إلى عقوبـة، مـع انَّنـي كنـت عـلى وشك أن أنفجر من الضّحك عندما قال، اسمه باللُّغة الكرديّة "الكيفشال"!

رفع أحد الطُّلاب بكلِّ جدّيّة يده وقال عفواً أستاذ عندي سؤال!

تفضَّل ابني تفضَّل.

هذا الحيوان الصَّغير الّذي تتحـدّث عنـه يـسمّى بالكرديّـة "الكيفـشال" ومـاذا يـسمَّى بالعربيّة؟!

نظر المدرِّس إلى الطَّالب بجدِّيّة أكبر، ثمَّ تمتم لنفسه، "نْها وخْتي تبُـوْ"! أي هـلَّا وقتـك كان، تسألني هذا السَّؤال، وقال للطالب برافو يا شاطر. ثمَّ فتح الكتاب وقال، افتحوا الكتـاب على الصَّفحة كذا.

فتحوا الطُّلاب الكتب على الصَّفحة المطلوبة، وقال لهم اسم هذا الحيوان هـو: سرطـان الماء العذب! ثمَّ همس لنفسه متمتماً، "نافي وي كلك دريشا"، "اشْوِلي مـشْبيركرْ نـافي وي". أي اسمه طويل جدّاً، لهذا نسيتُ إسمه!

أجاب الطَّالب لكنِّي يا أستاذ كنت أستطيع أيضاً أن أفتح الكتاب وأقرأ إ‘سمه.

ابتسم للطالب وحاول أن يلفلف الموضوع من خلال طرحه السُّؤال التَّالي:

طيّب، أيّهما أحلى وأسهل أن نقول: سرطان الماء العذب أم "الكيفشال"؟!

أجابَ جميع الطُّلاب وبصوتٍ إيقاعي، "الكيفشال"!

أيّهما أحلى وأسهل؟ ردَّ الجَّميع ثانيةً بما فيهم أنا بالذَّات: "الكيفشال".

كـان مـدير المدرسـة يـسير بجـاب الـصّف فـيما كـان الطُّـلاب يـردِّدون عبـارة "الكيفشال"، وسمع جميع الطُّلاب بإيقـاع واحـد يـردِّدون "الكيفـشال"، فاسـتغرب عـلى هـذا الصَّوت متصوِّراً وجود فـوضى في الـصَّف في حـصّة الأسـتاذ نـوري خلـف، فـدخل الـصَّف وإذ

الدَّرس يسير على خير ما يرام والهدوء يخيِّم على الصَّف، فتساءل المدير، أظنُّ أنَّ الطُّلاب ردَّدوا مرَّتين "الكيفشال"!

ضحك الأستاذ نوري وقال بكلِّ ثقة فعلاً هذا ما حصل، لأنَّ درسنا اليوم أستاذ هو على "الكيفشال"!

وقفتُ وأنا أبتسم للمدير، والبسمة مرتسمة على وجوه الطُّلَّاب أيضاً. وأسعفت المدرّس، قائلاً للمدير فعلاً أستاذ جورج الأستاذ نوري أجادَ في شرح درس اليوم والَّذي حمل عنوان: "الكيفشال"، وقد خيّر الطُّلاب وسألهم مرَّتين أيّهما أحلى وأسهل إسم: سرطان الماء العذب أم "الكيفشال"؟ فأجاب الطُّلاب بالإجماع: "الكيفشال".

سألني المدير، هل حضرت الدَّرس من بدايته؟

طبعاً، حضرته من بدايته.

إذاً مرّ على الإدارة في نهاية الدَّرس، لنناقش بعض الأمور الإداريّة.

بكلِّ سرور.

اِنتهت الحصّة الدَّرسيّة، شكرتُ المدرّس على الجهود الَّتي بذلها في شرح الدَّرس، خرج المدرّس وخرجت بدوري متوجِّهاً نحو الإدارة وخرج الطُّلاب وهم يردِّدون "الكيفشال"، والضُّحك يغمر قلوبهم!

نظرت إلى المدرّس مؤكِّداً له أنَّ نسبة كبيرة من الطُّلاب لا تتذكّر عنوان الدَّرس نظراً لطوله وصعوبة حفظه، بينما جميع الطُّلاب حفظ بكلِّ سهولة اسمه القصير بالكرديّة "الكيفشال".

ضحك المدرِّس قائلاً، أنا نفسي نسيتُ اِسمه فكيف لا ينسونه الطُّلاب!

ضحكتُ بدوري، ثمَّ توجّهت نحو غرفة المدرِّسين ودخلت غرفة الإدارة!

حالما نظرت إلى المدير، ابتسم لي وقال، "الكيفشال"! ضحكنا ثمَّ جلست أشرح للمدير كيفيّة سير الدَّرس. كانت قهقهاتنا ترتفع عالياً، ثمَّ قال المدير حقيقة ستكون خطَّة جبّارة لو استمرَّ الأستاذ نوري حتَّى نهاية الفصل الثَّاني، عاماً كاملاً يدرِّس في إعداديّتنا، ستكون أوَّل مرّة في تاريخ محافظة الحسكة، أن يستمرَّ فصلين متتالين، لأنّه هو نفسه لا

يستطيع الاِستمرار بأيّة مدرسة أكثر من فصل واحد، فهو يطلب نقله لأنّـه لا يتحمّـل مـشاكل الطُّلاب ويريد أن يدرّس طلاباً جدداً في مدارس جديدة!

وهذا ما أشتغل عليه يا أستاذ جورج، لأنّني أحاول أن أحلَّ كلّ مشاكله، وأحضر بشكل مفاجئ لدروسه، وأجد اِنضباطاً في دروسه، لأنَّ الطُّلاب يتوقّعون حضوري في أيَّة لحظة.

فيما كنتُ في أحد الـصُّفوف، بلّغنـي أحـد المدرِّسـين، أن مفـتّش مـادّة العلـوم الأسـتاذ ميخائيل لولي يريد أن يلتقي بي، كان في الإدارة بانتظاري.

مرحباً أستاذ.

أهلاً وسهلاً، أنا مفتش العلوم، أسألكَ باعتباركَ موجّه طلاب الصَّف السَّابع وقـسم مـن الصَّف الثَّامن، كيف هو الأستاذ نوري مع الطُّلّاب؟

قلت له، ممتاز!

نظر إليَّ مندهشاً، كيف موجّه صف يقـول عـن الأسـتاذ نـوري خلـف ممتـاز، لأنَّ كـلّ موجّهي المحافظة كانوا يعانون منه ومن مشاكله مع طلَّابه، مع أنّه كان يدرِّس طلاب الـصَّف الأوَّل والثَّاني الإعدادي فقط!

من أيّة ناحية هو ممتاز؟

من أغلب النَّواحي!

معقول!

لِمَ لا؟

يا أستاذ أنا جاد معك!

ولو أستاذ، هل وجدتني أمزح معك؟

مرَّ المدير على مقربة منَّا، فاستوقفته، عفواً أستاذ جورج، ممكن دقيقة.

نعم خير أستاذ.

حضرة الأستاذ المفتش يـسألني عـن الأسـتاذ نـوري، أجبتـه عـن الـسُّؤال لكنِّـي أحـوِّل السّؤال لك أيضاً؟!

الأستاذ نوري مدرِّس جيّد، يحضر دروسه بانتظام ولا يغيب عن الدَّوام إلّا إذا كان مريضاً وإلَّا فهو أوَّل من يحضر وآخر من ينصرف من الصَّف.

هل داوم الفصل الأوّل كلّه في إعداديّتكم؟

طبعاً، أجاب المدير.

عجيب!!! قال المفتش.

أين العجب؟ قال المدير.

العجب يا أستاذ، أنَّنا دائماً نتلقّى شكاوي عن الأستاذ نوري، ولو لم نتلقَّ شكاوي من إدارة المدرسة أو الطُّلاب أو أوليائهم، هو نفسه يطلب منّي شخصيّاً أن أنقله إلى مدرسة جديدة بحيث لا يعرفه الطُّلّاب!

فيما كنَّا نتحدَّث عن الأستاذ نوري، مرَّ من جانبنا بعد أن اِنتهى من إحدى حصصه الدَّرسيّة!

حلو، ها قد حضر الأستاذ، عفواً أستاذ نوري ممكن دقيقة!

حالما شاهد الأستاذ نوري المفتّش، تقدَّم نحوه ببشاشة مرحِّباً به، وهو في قمّة بشاشته وحفاوته ولياقته.

أستاذ نوري هل أنتَ مرتاح في هذه الإعداديّة، سأله المفتش.

جدَّاً يا أستاذ، مبسوط جدَّاً من المدير ومن الموجّه صبري بشكلٍ خاص!

والطُّلّاب، هل أنتَ مبسوط مع طلَّابك ومرتاح بدروسك؟!

مرتاح يا أستاذ، مرتاح كتير.

بالمناسبة باعتبارك مفتّش مادّة العلوم، هل ترغب أن تحضرَ درساً عند الأستاذ نوري، تستطيع أن تختار الصَّف السَّابع أو الثَّامن!

هل أنتَ جاهز أستاذ نوري كي أحضر أحد دروسك؟

بكلِّ سرور يا أستاذ، بكلِّ سرور.

الحصّة الثّالثة، الصَّف السَّابع!

هل تودّ أن أحضر معكم الدَّرس، سألتُ المفتِّش.

لا مانع لو وافق المدرّس!

المدرّس يوافق طالما أنتَ موافق.

تفضَّلوا على الإدارة عندنا فرصة، لنشرب قليلاً من الشَّاي أو القهوة.

كم كان سعيداً الأستاذ المفتِّش، فرح جدَّاً عندما وجد هذه التَّطوُّرات مع مدرّس، دائماً يصادف مشاكل في المدارس الَّتي يتعيّن فيها، وإذ به يجده بشوشاُ، مرتاحاً مع طلَّابه، مع الإدارة ومع المدرِّسين!

بهذه الخطوة اِستطاع مدير المدرسة بإصراره على عدم تغيير المدرّس، وعلى زرع الثِّقة في نفسه، رغم كلَّ النّقص والتَّقصير الَّذي كان يراه منه لكنّه صبر عليه وأعطاه فرصة تلو الأخرى إلى أن أصبح مدرِّساً جادَّاً وملتزماً بدوامه. يحضِّر الدُّروس أوَّل بأوَّل، وشيئاً فشيئاً اِنسجم مع الجَّوّ العام في المدرسة، صحيح كنَّا بين الحين والآخر نصادف بعض المشاكل مع بعض الطّلّاب، لكنّه مقارنة بالمدارس الأخرى، كان في قمّة السَّعادة والاِرتياح والعطاء.

حضر المفتّش الدَّرس، وكذلك أنا، هدوء تام خيّم على الدَّرس، سار الدَّرس بشكلٍ منظَّم وناجح، كنتُ قد أعطيت للمدرّس خطوات شرح الدَّرس منذ أن أصرَّ المدير أن يحوّل الأستاذ نوري إلى مدرِّس ناجح، وتعاونّا معه إلى أن تجاوز الكثير من مشاكله مع الطُّلّاب!

اِندهش المفتِّش، عندما شاهد وظائف الطُّلاب، واستجاباتهم للشرح ومشاركتهم في الإجابة عن أسئلة المدرّس وهكذا خرج من الحصّة مرتاحاً هو الآخر، وقال حقّاً أنا أمام إدارة ناجحة من الطّراز الرَّفيع! مؤكّداً أنّه لمجرِّد استمراريّة المدرّس وهو مرتاح في المدرسة مع المدير والموجّه والطُّلاب والمدرِّسين، هذا كافٍ أن أعتبر الإدارة ناجحة نجاحاً باهراً!

في نهاية الفصل الثَّاني، وجّه مدير التَّربية بالحسكة ثناءً لإدارة المدرسة على حسن إدارتها وتفاديها لمشاكل المدرِّسين والمدرِّسات والطّلاب، قاصداً بذلك بكلِّ تأكيد نجاح اِستمراريّة الإدارة مع المدرّس نوري خلف، وبعدها سيق إلى الخدمة الإلزاميّة بعد نهاية

المدرسة بشهرين تقريباً، والتحقت بدوري أيضاً فالتقيتُ به في نبك، إحـدى البلـدات القريبـة من دمشق!

نظر إليَّ مليّاً بعد أن سلَّمْتُ عليه، ثمَّ قال لي أنا شايفك بس وين وين؟!

ألَا تتذكَّرني أستاذ، ماذا تغيَّر بي كي تنساني، كلّ ما في الأمر أنّهم حلقـوني وحلقـوك عـلى الصّفر!

تمتمَ أين التقيتَ بالأستاذ يا نوري أين التقيتَ بالأستاذ يا نوري؟!

سأسهّل الأمر عليك عبر سؤال، من المؤكّد تعرف جوابه تماماً؟!

تفضَّل سهّل عليَّ الأمر!

أيُّهما أحلى وأسهل، اسم سرطان الماء العذب أم "الكيفشال"؟!

الكيفشال!!! أجابني وهو يضحك، الأستاذ صبري!

ما غيره!

ثمَّ سلّم علي برحابة صدر وعانقني قائلاً لقد تغيّرت كثيراً.

يا أستاذ نوري كلّ ما في الأمر أنّني حليق الرَّأس، وأنتَ أيضاً حليق الرَّأس.

بالحقيقة يا أستاذ صبري أنتَ ذاكرتك في حفظِ الأشكال أقوى منّي بكثير.

اعتقد لولا "الكيفشال" لما عرفتني.

ضحك وقال فعلاً يا أستاذ، "الكيفشال" سهَّل عليَّ الأمر كثيراً.

سرنا نحو البوفيه، وفيما كنّا نتمشّى، تذكَّرت موقفاً طريفاً حصل معنا في الـشُّهور الأولى من تعيينه عندنا، فقد خرجنا من المدرسة والَّتي كانت في أقصى شرق المدينة، وسرنا في شـارع كنيسة السّريان، حتّى وصلنا البلديّة، ثمَّ تابعنا إلى مدرسة المـأمون الرِّيفيّـة سـابقاً وأصـبحت معتمد الرَّواتب لاحقاً كي نقبض رواتبنا، لأنّه ما كان يعرف مقرّ معتمد الرَّواتب فرافقني.

دخلنا مكتب معتمد الرَّواتب فرحّب بنا الأستاذ صبري سعدون.

معي الزَّميل الأستاذ المكلّف نوري خلف، في إعداديّة يوسف العظمة.

نعم، وصلت إلينا أمر صرف السَّاعات الإضافيّة للمدرِّسين المكلَّفين بساعات تدريس، وكذلك وصلت السَّاعات الإضافيّة للمعلِّمين المنتدبين.

طلب هويّة المدرّس، ثمَّ فتح سجلّه ودقَّق بإسمه ثمّ طلب منه التّوقيع وقبض ساعاته على شهرين وبضعة أيام.

فرح جدَّاً عندما قبض رواتبه وطلبت منه أن يضعها في جيبه بشكلٍ جيِّد.

قبضتُ ساعاتي الإضافيّة، ثمَّ توجّهنا نحو بيتي والَّذي كان يقع في طريقه!

وصلنا إلى مقرِّ مزارع الدَّولة، مقابل بيت "درويش معروف" وبيت الدُّكتور عبدالعزيز حسو، ووقفت في المفترق، كي أحدِّد له كيف سيذهب إلى بيته الواقع في الشَّارع العريض الَّذي كان يقوده إلى العين العسكريّة، ولكنّه قاطعني قبل أن أشرح له كيفيّة الذّهاب، قال لي أستاذ شوارع ديريك مخربطة جدّاً، ولا أستطيع الذّهاب إلى البيت من هنا، مع أنَّنا كنّا بعيدين عن تقاطع الشَّارع الَّذي سيذهب إلى بيته فقط شارعين، فقلت له كيف تريد الذّهاب إلى البيت؟!

قال لي، أستطيع الذِّهاب إلى البيت من المدرسة إلى البيت، ومن هنا لا أستطيع الذّهاب مهما شرحت لي.

اعتقدتُ في البداية أنّه يسخر منّي أو يريد أن يداعبني ويمزح معي، لكنّه أصرَّ على رأيه، ففكَّرت بحلِّ مشكلته بطريقة تناسبه تماماً وسألته:

أستاذ نحن الآن في نهاية الشَّارع الآتي من معتمد الرَّواتب، هل ترى من هنا معتمد الرَّواتب، مقابل البلديّة والسَّراي.

أجابني طبعاً، أشاهد معتمد الرَّواتب.

قلت له، هل تستطيع الذّهاب إلى معتمد الرَّواتب من هنا؟

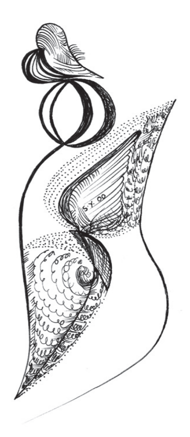
قال بالطبع.

وهل تستطيع من معتمد الرَّواتب أن تذهب إلى المدرسة بعد أن تأخذ شارع الكنيسة العريض وتسير به باتّجاه الشَّرق حتَّى تصادف المدرسة!

أجابني أستطيع.

بعد وصولك إلى المدرسة، تستطيع بكلِّ سهولة العودة إلى البيت!

ضحك وقال لي ممتاز يا أستاذ، فكرة رائعة، انحلّت المشكلة.



ودّعته وتركته يسير نحو الطَّريق الّذي يعادل 15 ضعف الطّريق إلى الشّارع الّذي يؤدي إلى بيته من هنا.

راقبته، سار على الرَّصيف إلى أن قطع أكثر من نصف الطَّريق، فتأكَّدتُ أنّه سيشقُّ طريقه نحو الهدف المطلوب، ثمَّ تابعت سيري نحو المنزل، مندهشاً من إصراره بقطع كلّ هذه المسافة، بينما المسافة ما بين النُّقطة التي كنّا فيها والشارع الَّذي يقوده إلى بيته ليست أكثر من 100 متر! أي كنَّا نرى الشَّارع بوضوح، بالعين المجرّدة!

عندما اِلتقيته في اليوم الثَّاني سألته عن كيفيّة عودته إلى المنزل، وسرعان ما شكرني على فكرتي في حلِّ مشكلة العودة إلى البيت بنجاح باهر.

فيما كانت هذه المشاهد تتراءى أمامي، كان ينظر إليّ وهو يبستم، فسألته بماذا تفكِّر يا أستاذ؟!

أجابني، وهو في قمّة مرحه، أيُّهما أحلى وأسهل، اسم سرطان الماء العذب أم "الكيفشال"؟!

الكيفشال، ثمَّ ضحكنا معاً وتعالَت قهقهاتنا تصدحُ في أرجاءِ المكان، تخفِّفُ من غربةِ الإنسان معَ أخيهِ الإنسان، وتطهِّرُ القلوبَ من آهاتِ السِّنين!



بطاقة تعريف

صبري يوسف:

* مواليد سوريّة- المالكيّة/ ديريك 1956.
* عضو اتّحاد الكتّاب والأدباء السويديين.
* خرّيج جامعة دمشق، دراسات فلسفيّة واجتماعيّة/ علم الاجتماع عام1987.
* خـريج جامعـة سـتوكهولم قـسم الفنـون، الخـاص بتـدريس الرَّسـم في الحلقـة الابتدائيّـة والإعداديّة.

قدّم العديد من المعارض الفرديّة والجماعيّة في ستوكهولم.

* أسّس "دار نشر صبري يوسف" في ستوكهولم عام 1998 وأصدر أكثر مـن 60 كتابـاً عـبر دار نشره ودور نـشر أخـرى. تـضمّنت كتبـه مجـاميع شـعريّة وقصـصيّة وروايـات، وكتـب في الدّراسات النّقديّة والتّحليليّـة، كـما أصـدر العديـد مـن الكتـب في أدب الحـوار، حـوارات أُجريَت معه، وحوارات أجراها مع مبدعين ومبدعات، كما أنّه أجرى حـواراً موسـوعيّاً مـع نفسه بعنوان: حوار مع الـذّات، ألـف سـؤال وسـؤال، أنجـز حتّـى تاريخـه الجـزء الـسّابع ويعمل على الجزء الثّامن والتّاسع والعاشر والمدرجة ضمن جدول أعماله الإبداعيّـة حتـى نهاية عام 2018. (وأغلب إصداراته هي كتبٌ الكترونيّة).

دراسات نقديّة وتحليليّة عن تجربته الأدبيّة والتَّشكيليّة:

1- إنسانُ السَّلام: مَـنْ هُـوَ وكيـفَ يَتكوّن؟ تجـربـة صبري يوسـف الإبــداعيّة أنـمـوذجــاً، بالعربيّة والإيــطـاليّة، د. أسماء غريب، إيطاليا................2016.

2- جدلُ الذّاكرة والمتخيّل، مقاربة في سرديّات صبري يوسف، د. محمّد صابر عبيـد، العـراق دار غيداء- الأردن 2016.

3- ستراتيجيّات النّصّ المفتوح، حركيّـةُ الفـضاء وملحميّـةُ التّـشكيل، د. محمّـد صـابر عبيـد، العراق دار غيداء- الأردن 2016.

4- تَمثُّلاتُ السّادة الملائكة الكروبيّين في تجربة صبري يوسف الإبداعيّة (مـن الأدب إلى الفـنّ التّشكيليّ) د. أسماء غريب .... 2017.

* أسّس عام 2013 مجلّة السَّلام الدَّوليّة، مجلّة أدبية فكريّـة ثقافيّـة فنّيـة سـنويّة مـستقلّة، يحرِّرها من ستوكهولم، وأصدر خمسة أعداد منها عبر الشّبكة العنكبوتيّة.

* تمَّ ترجمة أنشودة الحياة بأجزائها العشرة إلى اللُّغة الإنكليزيّة عن دار نشر صافي للترجمة والنّشر في واشنطن. وترجم بنفسه ديوانين من دواوينه إلى اللُّغة السُّويديّة وأصدرهما عبر دار نشره في ستوكهولم.

* مقيم في ستوكهولم ــ السُّويد منذ عام 1990.

sabriyousef56@hotmail.com

